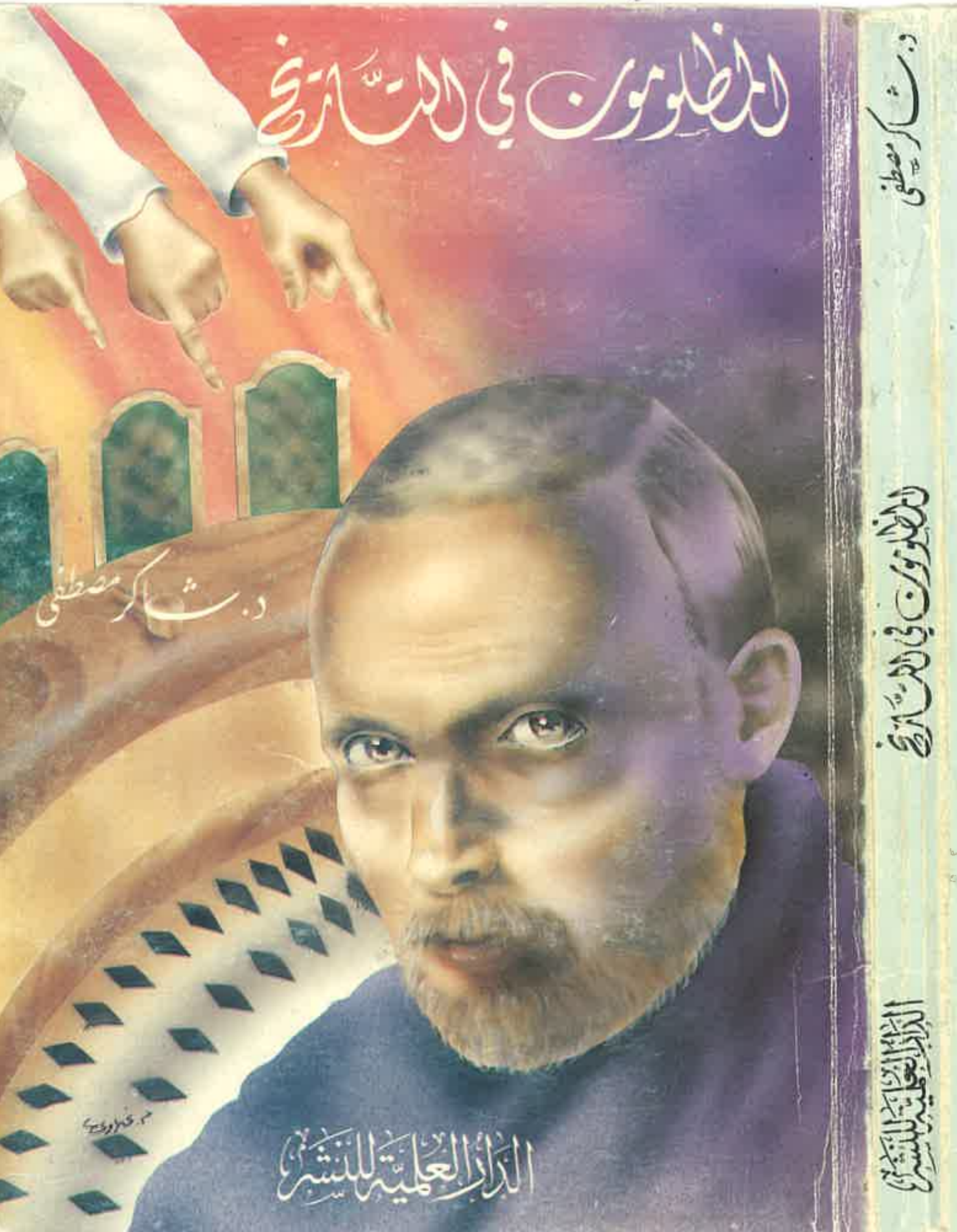


المظلومون في التاريخ
د. شاكر مصطفى
الدار العلمية للنشر
د. شاكر مصطفى
المظلومون في التاريخ
الدار العلمية للنشر

المظلومون في التاريخ

د. شاكر مصطفى

الدار العلمية

١٩٩٥

طبع من هذا الكتاب ٥٠٠ نسخة

موافقة وزارة الإعلام

رقم ٢٤٦١٤

تاريخ ٢٧/١٠/١٩٩٥

يطلب الكتاب من الناشر

الدار العلمية

دمشق ـ حلبوني ـ جادة الربيع الثانية

بعد مشفى الولادة

هاتف ٢٢١٥٢٤٢

ص. ب ١٦٣٢٣

كلمة أولى

أكره الظلم والظالمين.. طبيعة فيَّ ما أدري من أين ورثتها. ولكن قلبي ينفجر لكل ظلم ومظلوم. وبيني وبين العدل حلف يدخل في تكويني ونسيجي الروحي. ولقد علمني هذا الحلف أن انظر على الدوام إلى الوجه الآخر للتاريخ، الوجه المطل على الجحيم!.

وتشقى إذا أنت أطللت على هذا الوجه الآخر. إن ألواناً من الظلم تتراءى لك من كل جانب كما لو أنها صور المعذبين في جحيم دانتي... ويحدثونك عن محكمة التاريخ العادلة وينتظرون منها النصفة والميزان.. وينصبون لها القاضي العجوز الأبيض اللحية والشعر وبيده القلم، وعيناه تبصان كمن يخرق بنظره السماء والأرض. قل إنه أعمى، وضلال ما تتوهمون. تلك الملفات التي تتراكم لديه وتتراكم جبالاً

من الورق لن تفتح أبداً إلا إن شئت أنت أو شئت أنا فتحها والنظر في الوجه الآخر للتاريخ إن كان ثم ما يكشف الوجه الآخر!

من ألقوا من بني الانسان في جحيم الظلم، دفعوا به إلى الأبد. سيظلون خالدين أبداً في ذلك الجحيم ولو دفعت عنهم بألف برهان إلا أن تمتد إليهم يد تقلب الموازين. الخدعة الكبرى أن تظن بالتاريخ ظن الخير، وأن تترك الأمر إليه. إنك إذن للخاسر الخاسر! فما التاريخ إلا الانسان نفسه في مرآة ذاته. وإذا قال شاعرنا القديم زهير بن أبي سلمى:

والظلم من شيم النفوس فإن تجد

ذا عفة فلعله لا يظلم

فقد قال تعالى ﴿إن الانسان لظلوم كفار﴾ ثم قال: ﴿إنه كان ظلوماً جهولاً﴾ أتنتظر ممن كان ظلوماً كفاراً جهولاً أن يفتح الملفات المغلقة؟ ولو فعل فكم ذا يستطيع أن يفتح؟.

شاكر

المظلومون في التاريخ

هل يكون الانسان حقا اسير بعض الافكار التي انغرست فيه كالسهم الفضي وهو صغير؟ هل نحن حقا تكوينات كبعض الشجر تتعقد هنا، وتستطيل هناك، وتضرب جذرا في ناحية، وفرعا سامقا، في اخرى، وتلتوي احيانا او تلتف أو تغرق بالصدف التي تلقاها؟

يخيل الي احيانا اني ذلك الاسير، او تلك الشجرة، التي كونت عقدها واستطالاتها الصدف. في صباي الأول، شاهدت فيلما ما تزال ترن في خاطري منه الجملة الام، ترن الكلمة التي اراد ان يقولها صاحبه. الفيلم يحكي قصة محام اضطر في الدفاع عن بعض القضايا التي يؤمن بها، ان يظل يرافع ويرافع امام المحكمة ثلاثة ايام متتالية وبدون انقطاع. اتى بوعاء الماء وبالطعام امامه مع اوراق القضية، وظل يتكلم، ويتكلم، ويتكلم قالوا له: «ولكنها قضية خاسرة»، فقال: «ولكن القضايا الخاسرة هي التي تستحق الدفاع عنها». وربح في النهاية القضية الخاسرة.

منذ ذلك الوقت، وانا احب تحدي القضايا الخاسرة، الوجه الاخر المظلم للقمر هو الذي يثيرني لا الوجه المشرق. الحقيقة الخبيئة هي التي تجتذبني لا الاحكام المستقرة. المظلومون يدعونني

الى صفوفهم بنداء غاو أين منه نداء السيرين لاوديسيوس، الاحساس بالعدل عندي له لهيب السياط في الظهور، صار اشبه بالمرض يذبحني دون سكين، العاثرون على الدروب بعض من همومي المقيمة ويخيل الي اني في هذه الخواطر التي سوف اعبر بها، سوف اكون مشدودا الى هؤلاء العاثرين، سوف افتح ملف المظلومين في التاريخ. سوف اكون المدافع عن القضايا الخاسرة، امن السهل ان يكون الانسان محامي الشيطان؟ المظلومون في التاريخ قوافل من المحكومين، رميت في السجن الابدي احكمت حولهم الحدود والقيم فلا فكاك. فيهم الشعوب، وفيهم الملوك والحكام، وفيهم الشخصيات الشهيرة، كلهم فيما يقولون اصدر فيهم التاريخ احكامه، او لنقل على الاصح، فالتاريخ مظلوم بدوره، لنقل ان الناس صنعوا على لسان التاريخ تلك الاحكام، وكان الحكم قاسيا قسوة القيود في اعناق الابرياء، رهيبا احيانا كذبح الاطفال. ورددت الاجيال على توالي الاجيال الحكم على انه قضية مقضية، وبعضها تفلسفه، وتجعل له الايدي والارجل، وتزيد حوله هالة الاساطير. ونحن نجرد من التاريخ صورة الحكم العادل، نحتكم اليه، نكتب له، نطلب منه الانصاف حين يعجزنا انصاف العصر. الحكمة كلها نضعها في هذا الشيخ الوقور الذي يرسل لحيته البيضاء حول السجل الاعظم، ويمسك على الدوام بالقلم وبميزان العدل والاحكام «التاريخ»، امن الفجيعة ان احرق أمامكم هذه الصورة الاسطورية للتاريخ؟ اتستدير اعينكم من الدهشة والفزع ان قلت، وانا اعاني هذا العلم منذ ربع قرن، ان التاريخ الحكم العدل ليس الا صدى ما نريد، صدى الامنيات؟ واما واقع التاريخ والسجل المستور فامر

اخر؟ ليس التاريخ عالم المثل والانصاف الالهي، انه ليس الا صورة الناس، يخطىء ويصيب بقدر ما يريد له الناس ان يخطىء ويصيب. انـا نعيره المثـالية القـدسية كـأنما هـو المعادل للظلم الاجتماعي الذي نرفض، نجعله ظل العدالة الالهية، وانما يكتبه البشر للبشر وباراء البشر. التاريخ اعمى، وانما يبصر ان ابصر بأعيننا، باعيننا نحن، ومن خلال الوان نظاراتنا.

بول فاليري الشاعر الفرنسي المعروف كتب ذات يوم: «اننا ما نزال من التاريخ في حالة الاعتبار النظري والمراقبة المضطربة. التاريخ انما يبرر ما نريد. انه لا يعلم شيئا بدقة وحزم لانه يشتمل على كل شيء، ويقدم المثل على كل شيء. التاريخ اخطر محصول انتجته كيمياء الفكر». اليس فاليري على حق يا ترى؟ واذا كان الشخص الواحد يمكن ان يكون في وقت واحد المستر جيكل والمستر هايد، افلا يكون اللعن والتقديس فيه متساويين ومن طبيعة ريبية واحدة؟ افلا يحق لنا ان نقف على مسافة واحدة من الشك ومن اليقين في احكام التاريخ؟ اليس صحيحا ان نقول ان الحقيقة التاريخية ليس على الدوام اكثر من وجهة نظر، وان التـاريخ اعقـد بكثير من ان تفسـره او تحيط به وجهـة نظر. المحظوظون في التاريخ وجهات النظر فيهم لا تهمنا الان، لن نهدم ما بني حولهم من امجاد، ولو كان الكثير منهم انما بناه الوهم وزيفت له الاساطير. المظلومون هم الذين يطلبون العون، تماما كـما يستنجد الهـالكـون في جحيم دانتي بـأي زائـر للجحيم، الاحاديث التي سوف اعبر بها انما هي محاولة انصاف للمظلومين. مجرد محاولة...

الا يستحق سجناء الظلم التاريخي ان تمتد لهم يد منصفة؟

الحجاج الظالم الحجاج المظلوم

الحجاج، قل الاسم واسكت، اذن، فسحابة من التوجس والكره تغشى العيون كأنها قطع الليل، الحجاج الغارق في الدماء حتى الاذقان، هو احد الرموز الدموية للظلم، كتلة من الجبروت والارهاب الذي يخرق العظم، كان هذا هو الحجاج بن يوسف الثقفي. ولو بدأت فقلت ان الحجاج مظلوم في التاريخ، لا نطلق الف لسان بالاستنكار وقيل لي بألف صراخ: انه شيخ الظالمين ورئيس منظمة القمع والارهاب في التاريخ، دماء ضحاياه نهر يخنق كل صوت بالرحمة لهذا الذي تجعله الروايات قصير القامة، اخفش العينين، دميم الصورة، كأنه ابن اللعنة او سليل فرعون، لا يوجد احد في قسوة الحجاج الوحشية، ومن ذا الذي يجرؤ ان يدافع عن سفاح كان سيف جلاده اسرع من كلمته، او يعذر رجلا وراءه قبيلة مسعورة من الضحايا تسد الافق؟ على ان الرجل، على ما يظهر، كان يصدر في اعماله عن قناعة مطمئنة بانه انما يرعى المصلحة العامة. كتب له بعض رعيته على المنبر «قل، تمتع بكفرك قليلا، انك من اصحاب النار». فكتب تحتها: «قل موتوا بغيظكم ان الله عليم بذات الصدور».

ايهمنا رأي الحجاج في نفسه؟ ليس بالمهم هذا الرأي، فان الرجل لا بد مدافع عن اعماله، ولكن هل كان الحجاج يعيش فقط على شفرة السيف؟

هل كل ما قدم للناس هو هذه السحنة المقطبة عند نطع الجلاد؟ ان صورة الرجل تختلف قليلا اذا نحن تحولنا بها عن السيف والسياسة. ان صفحته هنا تضج بالسواد وبالدم المتخثر، وبالرعب الاخرس، اما الوجه الاخر للصفحة فدنيا مختلفة كأنما هي سيرة اخرى او كأنما استعارها الحجاج من غيره. لقد كان الرجل احد بلغاء العرب، وخطبائهم الكبار، وفي تاريخ الادب العربي ظل كبيرا كبيرا، فهل يشفع له هذا بشيء؟ ولم يكن عبدا للمادة، لقد كانت عمالته السنوية مثلا ٥٠٠ الف درهم وقد بقي ٢٠ سنة واليا على المشرق كله من العراق الى اقصى خراسان والسند، فماذا كان لديه عند موته؟ كان لديه فقط ٣٠٠ درهم. أليس في هذا ما يلفت النظر الى الوجه الاخر للحجاج؟ هذا الوجه الاخر ماذا عليه ايضا يا ترى من ملامح السرايا التي اخترقت الأفق الشرقي للدولة الاسلامية ونزلت بالاسلام في حوض السند واضافت اليه ما نسميه اليوم بالباكستان، وبنغلادش واسلام الهند انما كان الحجاج هو الذي اطلقها اول من اطلق بقيادة ابن عمه محمد بن القاسم الثقفي، والرايات التي زرعت من قمة الى قمة فيما وراء النهر، وفتحت الاسلام على الترك، وجعلتهم الشعب الرابع في تكوين الامة الاسلامية، تلك الرايات التي ما لبثت ان اطلعت هناك امثال: البخاري والفارابي والبيروني وابن سينا، تلك الرايات انما عقدها الحجاج اول من عقد،

عقدها للقائد الأول الذي ارسله بالاسلام الى ما وراء النهر، قتيبة بن مسلم الباهلي.

وماذا على الوجه الاخر غير هذا وذاك للحجاج ايضا؟ بنى الحجاج اربع مدن: اثنتين منها في فارس واثنتين في سواد العراق، في موضع وسط بين البصرة والكوفة، احداهما كانت زينة المنطقة وسماها «النيل»، وقد اندثرت، اما الثانية فهي التي ما تـزال معروفة قائمة الى اليوم باسم «واسط»، جعل جامعه وقصره ذا الشعبة الخضراء في وسطها وطوقها بسورين وخندق واقام على الطريق الى البصرة والى الكوفة اساطين على مسافات متساوية اراد ان يجعلها ويجعل عليها المبلغين، فاذا هو كبر للصلاة في واسط نقل هؤلاء التكبير من عمود الى اخر حتى يكبـر الناس معه للصلاة في المصرين. ونظم المدينة اسواقا وابوابا خمسة وجسورا عائمة على الماء. بغداد التي بناها المنصور بعد ذلك انما كانت تقليدا لهذه المدينة الحجاجية.

وماذا ايضا في سجل الحجاج غير هذا وذاك؟ في سجله ايضا وايضا انه عرب الدولة في المشرق كله، عرب الدواوين وعرب النقود. ضرب الدراهم والدنانير بالعربية، وضبط عيار المعدن الثمين فيها، كما ضبط المكاييل والاوزان خوف التطفيف، وفي سجله انه اقبل على الموارد الزراعية، وهي اساس الخراج فوفر لها الايدي العاملة، وشق عددا من الانهر في السواد، واستصلح اراضي البطائح والاراضي الموات، واقام الجسور على مجاري المياه، وقدم القروض للمزارعين.

واذا كان معظم هذه الاعمال قد انقرض فان له عملا لا تزال

الاجيال العربية الاسلامية تدين له به اليوم والى الابد. رأى اللحن يركب الالسن، ورأى صحيح الكلام يضطرب بالقراءة دون اعجام، فانصرف همه رأسا الى القرآن الكريم كيف يحفظه؟ كيف يحفظه ان يلحن فيه اللاحنون، كيف يحفظه من الالسنة التي يأخذها العوج ومتشابه الاحرف والتصحيف؟ المحاولة الاولى التي حاولها ابو الأسود الدؤلي من قبل لم تفلح كثيرا في ضبط الامر، وفزع الحجاج الى كاتبه نفط بن عاصم الليثي الذي وضع له اعجام الاحرف وتنطيقها، كما وضع له الشكل للحركات، وكتبت المصاحف المعتمدة بالاعجام والحركات بين يديه، وارسلت الى الامصار لتكون مصاحف الناس.

ترى بعد كل هذا، اليس هذا الظالم الاكبر، بالمظلوم الاكبر ايضا؟ اليست اشباح قتلاه التي منعت صورته الصحيحة عن الناس قد استطاعت الانتقام منه ومن ظلمه والى الابد؟ ولو وضعت الدماء في ميزان وهذه الاعمال، فأيهما يرجح يا ترى؟ لقد ترجح الاعمال، ولكن الدماء تظل تصرخ، تصرخ في الظالمين.

ابن جحاف

ابن جحاف، من ذا الذي سمع بهذا الاسم؟ ابن جحاف، ابن جحاف. حتى اصداؤه ماتت على الزمن، فما يذكر احد حكاية هذا القاضي الاندلسي مظلوما كان ام ظالما، بطلا من ابطال الاسلام ام مجرد مغامر عبر التاريخ صدفة. قصة ابن جحاف هي قصة سقوط قطعة من الفردوس الاندلسي الضائع في ايدي الفرنجة. لقد كان احد النسور التي احترقت اجنحتها باللهيب الفرنجي يوم اقتحم الفردوس، افترس الفردوس محا ظل الاسلام في الفردوس، وملوك الطوائف كالقطط العمياء، همها ان يمزق بعضها بعضا، وان يعض بعضها املاك بعض.

القصة كانت قصة «بلنسية العروس المرمرية» على الشاطىء الاسباني الشرقي. كانت في اواخر القرن الخامس الهجري من مملكة طليطلة، فلما استولى الاذفنش ملك قشتالة على هذه المدينة وعد صاحبها القادر بن ذي النون ان يسيره الى بلنسية ويعينه على ملكها. وقبل هذا الرجل ان يكون اجير الملك القشتالي الذي ذبح طليطلة وارهق بلنسية بالضرائب ليرضي جشع القشتاليين، وتنازل لهم عن بعض الحصون كرما وسماحة وزلفة. كل ذلك

ليبقى له اسم الملك. سرير الملك، وأي سرير ذليل كان!

وظهر على الساحة بعد ذلك فارس من المرتزقة الجلالقة اسمه روذريق تعرفه المصادر العربية باسم «الكامبيطور»، فجمع الرعية وفرض الاتاوة السنوية الضخمة على صاحب بلنسية المسمى بالقادر وهو غير قادر. فكان من المذلة يدفعها عن يد وهو صاغر. اما اهل بلنسية فكانوا بركانا من الغضب المكبوت. كانت اصداء معركة الزلاقة التي سحق فيها «المرابطون» الجيش القشتالي قبل سنوات لا تزال طرية في اسماعهم، تهزج، وتبعث في الاعين الف امل وامل. وكانت عزة الايمان لهبا يحرق الصدور او كاللهب، وكانت المظالم تقصم منهم الظهور، فيتطلعون هل من فرج؟

واخيرا انفجر الغضب، اجمع الناس على الخلاص من القادر، وتزعم الحركة قاضي المدينة ابو احمد جعفر بن عبدالله ابن جحاف يعاونه اهل الحل والعقد في البلد، وبعثوا فاستنجدوا بقائد المرابطين في الاندلس، وتلقوا السرية التي ارسلها لمعونتهم في ظاهر بلنسية، ثم عاد ابن جحاف فقبض على الملك القادر الذي وجد مختفيا في حمام القصر ومعه صندوق من الحلي والجواهر. فقتل وطاف طائف برأسه في الاسواق، ورميت جثته في بعض الحفر.

كان ذلك في رمضان من سنة ٤٨٥.

ثلاث سنين واربعة اشهر وسبعة ايام، دامت دولة ابن جحاف في بلنسية فاما الذين عادوه فقالوا: انه طمح ببصره الى قضية

القاضي محمد بن عباد الذي اسس سلالة مالكة في اشبيلية، اراد ان يقلده فما احسن النظر ولا ساعده القدر. قالوا: انه تبوأ سدة الرئاسة ورتب ارزاق الجند والخدمة واستشعر غلظة الرؤساء، واظهر ابهة الملك فكان يجلس مكتنفا بالوزراء والفقهاء والزعماء والغلمان امامه. ويركب فيتقدمه العميد والطرد ويتأخر عنه الجند وتستقبله المصانعة بالدعاء والثناء، وكان يزداد على الدوام غلظة وحجبة.

وقالوا: ايضا انه احتوى على ما في قصر آل ذي النون من الاموال والاثاث وذخائر الملوك، وانه حين طالبه بها «الكامبيطور» بعد سقوط بلنسية فيما بعد امسك منها ذخيرة نفيسة وانكرها، وحلف انه ما رآها، ثم عثر عليها عنده فكان ذلك سبب قتله. وقالوا: ايضا وايضا انه هادن «الكامبيطور» الكافر كغيره، وان هذا اللعين فاوضه على ان يخرج جند المرابطين من البلد، ويلقيهم مع مقام القادر ويحميه ويقاتل عنه، فطمع ابن جحاف في ذلك وقبل. بل ان المصادر الفرنجية تتهم ابن جحاف ايضا بالغدر ونكث العهد ونهب الاموال. الم يكن ابن جحاف مظلوما يا ترى؟ في بعض هذه التهم ان لم يكن في كلها؟

الصورة الاخرى لابن جحاف قد تكشف امره. نصب روذريق الكامبيطور نفسه وارثا للقادر ومطالبا بثأره وامواله وضرب النطاق على بلنسية يقطع طرقها، فالعابرون منها واليها بين قتلى وجرحى. وحاول ابن جحاف مسالمته بالمال والمفاوضة لانه لا يقوم له بالقوة. فكان للكامبيطور في كل يوم مطلب جديد. طلب ان ينزل مع جيشه حول بلنسية. ثم طلب ان يتسلم موارد المدينة. ثم طلب

ان يكون ولد ابن جحاف رهينة عنده. واغلق ابن جحاف ابواب بلنسية وبعث يطلب النجدات، فلما قدمت واستبشر بها الناس، هربت امام الكامبيطور دون حرب وتركت بلنسية لمصيرها الفاجع، وقرر ابن جحاف، ماذا؟ قرر الدفاع حتى الموت.

عشرين شهرا استمر هذا الدفاع اليائس. لا يعين المدينة احد. قطع الكامبيطور عن بلنسية الطرق والمرافق ونصب المجانيق ونقل الاسوار، احد الذين حضروا تلك الايام في بلنسية كتب في امرها كتابا يشبه البكاء، قال: عدم الناس الطعام واكلوا الفئران والكلاب والجيف. ولم يبق في المدينة ما يدب على اربع، واكل الناس الناس، ومن مات منهم اكلوه بعد ان اكلوا الجلود والدواب. والمدينة صامدة.. صامدة. ومن فر منها مستسلما للعدو فقئت عيناه، او قطعت يداه او دقت ساقاه، او قتل وامتلأت الارياض وبواسق الاشجار حول بلنسية والصوامع بالجثث معلقة. كل ذلك وابن جحاف هو روح هذه المقاومة.

ولما انتهى الصبر ولا غوث، اجتمع اهل المدينة اليه ورأوا ان يخرج الى الكامبيطور في طلب الامان، وخرج. خرج مرغما وعقد معه العهود والمواثيق وفتح له الابواب. لم يمض قليل على استسلام المدينة حتى استخرج الكامبيطور من اهلها جميع آلات الحديد. فمن وجد عنده شيء منها قتل. وحول جامع المدينة الى كنيسة ثم حبس وجوهها في القصر لا يطلقهم الا بمائة الف مثقال من الذهب. واما ابن جحاف فطالبه بذخائر القادر، فلما اخذها احاله الى المحاكمة. جمع الناس، فقال: «ما جزاء من قتل سلطانه عندكم في شرعكم؟» فلما وجموا قال: «جزاؤه عندنا

الاحراق بالنار مع اهله».

واوقدت في ساحة المدينة التي عرفت فيما بعد باسم «رحبة القاضي» نار عظيمة كانت تلفح الوجوه من بعد، وجيء بالقاضي ابن جحاف مع اهله واولاده، فلم يعف الكامبيطور عن الاهل والاولاد الا بعد ليت، وحفرت للقاضي، حفرة طمر فيها الى وسطه ثم ضمت النار نحوه. فلما دنت منه، قال: «باسم الله الرحمن الرحيم»، وجعل يضم اقباسها الى جسده بيده يستعجل المنية. ترى بعد هذا هل كان ابن جحاف مجرد مغامر ام بطلا مظلوما من ابطال الاسلام؟

قسطنطين الاخير

في تاريخ سقوط القسطنطينية سنة ١٤٥٣ م بايدي السلطان محمد الفاتح العثماني ثم قصة ذهبت مثلا. يروون ان هذا السلطان كان يضرب الحصار على تلك المدينة، وانه كان ينصب امام اسوارها اكبر المدافع التي عرفتها الدنيا حتى عهده، اما اهل المدينة وبطاركتها الكبار فكانوا يتناقشون في امر اهم لديهم من سقوط المدينة. يتناقشون: كم ملكا من الملائك يمكن ان يقف على رأس دبوس؟ وسقطت بالطبع القسطنطينية.

الذين يروون الحكاية يضيفون اليها الحديث عن تهاون امبراطور القسطنطينية في الدفاع عنها، عن قبوله بانكماش الامبراطورية البيزنطية، امبراطورية الروم العظمى التي لم تستطع الجيوش الاسلامية خلال ثمانمائة سنة ان تكتسحها الاّ بضعة الاف من الهكتارات تضم العاصمة وما حولها.

هؤلاء الذين يحكون هذا وذاك لماذا يظلمون ذلك الفتح الذي اكتسح عاصمة الامبراطورية الرومية اخر امبراطوريات العصور الوسطى؟ ذلك الفتح الذي اطلق الاسلام حتى اعماق اوروبا، ذلك الحدث الانقلابي الذي وضع الحد الفاصل بين العصور

الوسطى والحديثة؟ لماذا يريدون له ان يكون مجرد معركة هينة؟ لماذا يلقون باللائمة فيه على الامبراطور الذي اهمل او اساء الدفاع وعلى العلماء الذين اهتموا بدك الاسوار بالملائكة والدبابيس؟

لكي نعرف، دعونا نخترق جدار الزمن الى ما قبل ٥٢٧ سنة، الى مثل هذه الايام من سنة ١٤٥٣ ميلادية. ودعونا نقف على ضفاف البوسفور. القسطنطينية لم تكن قد حملت بعد اسم استانبول. اسوارها الحجرية العنيدة التي تحاذي الماء، والمثلثة الجدران، كانت تحمل ذكريات نصرها على عشرات الحصارات التي ضربتها منذ القديم، من الفرس والعرب، ومن البلغار والسلاف ومن البنادقة، وهي تشهد اليوم حركة حصار جديد اعلامه تركية: حمراء وخضراء، ولكن جنوده من جند الاسلام الذين لم تشهدهم تلك الاسوار منذ الايام الاموية قبل اكثر من سبعة قرون.

قائد الحصار كان شابا في العشرين من العمر هو السلطان محمد. ارادة حديدية كان، وجيشه هو اقوى جيوش الدنيا. وحين امر ان تبنى له شمال القسطنطينية قلعة لقيادة الحصار، نزل الف بناء والفا عامل على الفور مع عدة الاف من الجند فبدأوا البناء. جميع اهالي القسطنطينية احتشدوا على الاسوار، حتى الامبراطور، ينظرون ماذا يجري؟

الرعب سكن المدينة. سال في الازقة محرقا لزجا. سحق الناس لدرجة ان الامبراطور بعث الى الذين يبنون القلعة بوجبات الطعام، وحين ذهب رسله الى السلطان يسألون عن الغرض من القلعة، كان جزاؤهم الموت. وعرف الامبراطور انها النهاية، كل

من في المدينة استنفر حتى الاطفال، كدست الاسلحة، الاحجار، الزيوت، المواد الحارقة، الاخشاب، مواد التموين، احواض المياه حتى ابواب المدينة الخمسون سد معظمها، ونصبت المدافع في فتحات الابراج الاربعمائة، والامبراطور بقامته المديدة النحيلة ووجهه الاسمر الخمسيني يشرف على كل ذلك بنفسه. وكانت النجدات الاوروبية تأتي القسطنطينية في البحر، ولكن في عدة مئات فقط، وتشترط توحيد الكنيسة الشرقية مع الغربية، وتقيم قداس الوحدة تحت قبة ايا صوفيا، بينما كان اهل القسطنطينية يكظمون الغضب المقهور ضدها. ويهمسون فيما بينهم وبين انفسهم:

«رؤ ية عمامة السلطان في هذا المكان افضل من رؤ ية قبعة الكاردينال وتاج الباب المثلث».

في الطرف الاسلامي المقابل كان السلطان محمد، بعد ثلاثة اشهر من الحصار والاستعداد، قد نجح في صنع اضخم مدفع عرفه العالم حتى عهده: «المدفع البرونزي المبتكر» قذيفته كتلة من حجر الصوان تزن ٥٥٠ كيلو غراما الى بعد كيلو مترين. كانت اسطوانة القذف بقطر متر واحد وبطول ثمانية امتار. هذا المدفع كان انقلابا في السلاح العسكري العالمي يومذاك، بعد اشهر اخرى مر بها فصل الشتاء ظهر في مطلع الربيع التالي على صفحة بحر مرمرة سلاح السلطان الاخر، اسطول بحري بناه سراً، قوامه خمسون سفينة حربية كاملة، من حولها ثلاثمائة وخمسون سفينة اصغر حجما، وحين عاد الامبراطور البيزنطي يحصي قواه اصاب الهلع سكان المدينة. ستون الفا. لكن ليس فيهم سوى سبعة

او عشرة الاف يصلحون للقتال.

بعد ايام من ظهور الاسطول بدأ الحصار الفعلي. مئات الرايات الخضراء والحمراء ماج بها المعسكر العثماني، قرع الطبول والصنوج ونفير الابواق كان يصم الاذان، خيام السلطان الحمراء والذهبية ضربت على بعد خمسمائة متر فقط من بوابة المدينة الغربية «بوابة رومانوس»، والمدافع التركية الضخمة بدأت هدم الاسوار وفتحت فيها فجوات تزيد على اربعمائة وخمسين مترا. كل ما لدى القسطنطينية من قوى ومن فن حربي بذل لسد الفجوات بالاشجار، بالصناديق وبراميل التراب، وبالاكياس وبالاقفاص والواح القصب، في انتظار ان تأتيهم اي معونة من الغرب، النواقيس كانت تقرع باستمرار لسد الفجوات الجديدة ونقصت كميات الطعام وحين رأى المحاصرون السفن العثمانية تنقل على العربات فوق البر لتنزل في القرن الذهبي المرفأ المغلق بالسلاسل الضخمة في شمالهم افترس اليأس كالغول كل النفوس، الامبراطور نفسه اشار عليه المجلس الامبراطوري بالهرب فلم يقبل. الشوارع غصت بالاف المسيرات تحمل الصلبان والايقونات وتصرخ «كيريا لايسون» (يا رب ارحم) دعاء الكنيسة وهي متجهة الى ايا صوفيا، مصابيح هذه المسيرات والشموع والفسيفساء الذهبية رأت عناق الدموع مع الادعية فيما كان الجنود على الاسوار يتساقطون تحت النيران والسيوف والحجارة المنهارة. الامبراطور بقي يقاتل عند بوابة المدينة الكبرى خلع زخارفه الملكية ليموت ميتة جديرة بالاباطرة.

حين انهارت البوابة ودخل الجيش العثماني، لم ينجح احد في

نوال الجائزة التي وضعت لمن يأتي بالامبراطور الثامن والستين بعد المائة من اباطرة الروم قسطنطين التاسع. قسطنطين الاخير لم يعثر عليه احد. الم يظلم التاريخ هذا الامبراطور حين اتهمه بالاهمال وانما دفع ثمن التركة التي خلفها له السابقون؟ الم يظلم الجند الذين دافعوا عن القسطنطينية حين جعلهم يناقشون في الملائكة والدبابيس؟ الم يسلب السلطان محمد الفاتح زهو نصره بهذا التهويل من قبل الفتح؟

ام الى هذا قصدوا قصدا لانه من فتوح الاسلام الكبرى؟

مروان الحمار

حديث اليوم عن عاثر اخر من عاثري الحظ في التاريخ. فعلى يديه انتهت على الاقل الدولة الاموية، اسمه لا يعجز احدا، فقد ربطوا به لقب الحمار، واطلقوه وراءه عبر العصور، فهو «مروان الحمار»، لانه فيما يعللون كان الصبور الصبور، وقد يترفقون فيقولون مروان الجعدي ينسبونه الى استاذه في الفكر والفلسفة «الجعد بن درهم». لانهم يتهمون هذا الاستاذ في دينه فهو ليس عاثر الحظ فقط، ولا الحمار فقط، ولكن المتهم في الدين ايضا، ونهاية الرجل كانت رأسا مقطوعا في احدى كنائس بوصير بأرض الفيوم في مصر، واولادا مشردين قبض على احدهم بعد ٣٣ سنة من الهرب، فقضى بقية عمره في السجن العباسي، واهلا مزقتهم السيوف بين دمشق ونهر ابي فطرس في فلسطين ونثرت عظام موتاهم نثرا في الهواء.

هذه هي آخر القصة، نهايتها الفاجعة المأساوية، فما اولها؟ ومن هو في واقع التاريخ مروان الحمار؟

على جبال القفقاس كانت البدايات، الدروب هناك، زحف الثعابين، والصخور زرقاء حمراء كأسنان الغيلان، والوديان ابعاد

ضائعة تحس على صوت الصدى الهارب ان بعضها يركض وراء بعض، وغابات اسودت لكثرة ما صمدت للصقيع، وثلوج ثلوج ثلوج ما يكاد يذيبها اي صيف. عند ذيول هذه الجبال الممتدة ما بين بحر الخزر والبحر الاسود سدا جبارا من سدود الارض كانت تنتهي حدود الدولة الاسلامية اواخر العهد الاموي، والناس هناك خلائط من الكرج والارمن والداغستان والشركس والخزر، والعرب فيهم قليل، ولكنه الحكم الاموي والقيادة للعرب المسلمين. من وراء تلك الجبال في الشمال كانت تقوم مملكة الخزر ثم ارض الصقالبة الروم الذين كانوا في ذلك العهد بعضا من بدائية الاقوام، لا حضارة ولا دين، والخزر انفسهم لم يكونوا على دين من اديان السماء، ويعيشون على التجارة ويتصلون قبل الاسلام وبعده بالسكان في جنوب القفقاس عبر شقة ضيقة بين بحر الخزر والجبل يسمونها «باب الابواب».

عند هذا الباب، وقبل انهيار الدولة الاموية بعشرين سنة، ظهر شاب اموي، صلب العود والارادة والصبر، في حوالي الثلاثين من العمر، يحارب بجانب ابيه محمد بن مروان عم الخليفة وحاكم المنطقة، والخليفة يومذاك هو هشام بن عبد الملك وحين توفي محمد هذا بعد سنوات خلفه في حكم الناس وفي قيادة المسلمين هناك هذا الابن الصلب مروان بن محمد. خمس عشرة سنة ظل مروان على هذا الثغر الاسلامي يحارب، ولقد عبر الجبال الزرقاء القفقاسية الى الجانب الاخر شماله، ونزل ارض الخزر وحمل اليهم الاسلام، واوغل ثم اوغل واوغل حتى تلك البقاع السوداء الغابية، التي تقع فيها موسكو اليوم. لاول مرة ولاخر

مرة ايضا رأت تلك السهول الغارقة في الضباب الوية الاسلام تخترق غاباتها، والانهر والخيام الجلدية وبيوت الخشب المضروبة في حناياها. في احدى الغزوات عاد مروان بن محمد من تلك الاراضي بمائة الف اسير. المؤرخون، حتى المؤرخون الاسلاميون، يذكرون دخول الاسلام الى اوروبا عبر الاندلس وعبر صقلية واخيرا عبر القسطنطينية. ابدا لا يذكر احد منهم دخول الاسلام، وفي ذلك العهد المبكر، الى اوروبا عبر هذا الباب الرابع، عبر جبال القفقاس. ينسونه لان مروان بن محمد عقب هذا النصر عاد الى بلاد الشام التي اضطربت، وتعاقب على خلافتها اكثر من خليفة، فتسلم بنفسه الخلافة، كان شيخ بني امية يومذاك، وسيفهم الاقوى والاصلب. رأى البلاد تموج بالفتن وبالطواعين، فنقل عاصمته الى حران في بلاد الجزيرة، وبدأ يبني لنفسه عاصمة جديدة، على مقربة منها انشأ جامعها والقصر والاسوار والبيوت، ورأى الجيش ممزق الولاء بسبب تركيبه القبلي قبيلة قبيلة، فحل الجيش واعاد تكوينه على اساس الكتائب، واختار له القيادات من الاكفياء، واعاد تنظيم الدواوين والكتاب والدولة، ورأى الثورات تنفجر في كل مكان بسبب ما تراكم من المساوىء في الحكم قبله فحاربها واحدة واحدة حتى خمدت النيران، بدا كأن الدولة الاموية كلها كانت في نهضة جديدة، في يقظة، وكان ذلك كله في خمس سنوات، معركة واحدة فقط خسر، «معركة الزاب» امام الثورة العباسية. ما كان يخطر في باله يوم خسرها انها ستذهب بالدولة الاموية، كان الجيش الذي هزم هو جيشه الجديد في الجزيرة، فلما تراجع الى الشام تخلى عنه

الامويون في الشام، قالوا: «تخلى عنا وحرمنا الجيش والعطاء ومركز الدولة فلنتخل عنه». وحين وصل مصر لم يترك له الثوار العباسيون فرصة استرداد الانفاس، دلهم احد الاقباط على مخبئه في كنيسة بوصير فكانت النهاية. كانت النهاية رأسا على الرمح. اما جبهة الخزر، فقد جمع الخزر جموعهم بعد ذلك حين علموا بموت مروان فتدفقوا كالسيول على ارض الاسلام تدميرا ونهبا، كل ما فعله الخليفة العباسي ابو جعفر الذي نعرفه بالمنصور انه اقام عددا من الحصون والمدن لحماية الحدود منهم، وبعد سنوات تهود ملكهم وانتشرت اليهودية فيهم، فهم هم انفسهم يهود روسيا ويهود نيويورك اليوم حملة الصهيونية. لو تابع مروان بن محمد الجهاد ولم تشغله الخلافة فهل كان للقضية الفلسطينية وجود اليوم يا ترى؟ ومروان هذا الذي ربطوا الحمار باسمه اليس بالمظلوم الكبير العاثر الحظ في التاريخ؟!

دونيا خوانا المجنونه

دونيا خوانا المجنونة هي حديثي اليوم، كذلك سماها معاصروها وكذلك يأتي اسمها في التاريخ، كانت ابنة ملكين، وام اثنين من الاباطرة، واربع من الملكات، وجدة لامبراطور ملك نصف الدنيا وحده، وجدة جميع الاباطرة في اشهر الاسر الملكية الاوروبية «اسرة هابسبورغ». وقد حملت على رأسها تاج اكبر امبراطورية عرفت حتى عصرها، قبل اليوم بخمسمائة سنة، تاج المانيا والنمسا وهولندا واسبانيا واميركا الوسطى كلها واميركا الجنوبية كلها، كان لها وعاشت ٧٨ سنة ومع كل ذلك فقد كانت اشقى ملكة عرفها التاريخ مظلومة حتى العظم.

كانت تعيسة ولا تعاسة من اجتمعت ضده كل الشياطين. احب الناس اليها ابوها وزوجها، هما اللذان دفعاها الى ما سموه «عالم الجنون». من كل ابهة الملك لم تعرف معظم حياتها سوى الثوب الاسود القذر. لم تحكم ملكها يوما واحدا، وكانت الدنيا تحكم باسمها. من امبراطوريتها الشاسعة كلها لم تعرف سوى غرف سوداء في حصون مهجورة، ومن عمرها المديد قضت السنوات الثلاثين الاولى طريدة الخوف والظلم والحرمان والغيرة،

بينما قضت السنوات السبع والاربعين الاخيرة في السجن المظلم كالقطة الوحشية. هل كانت هذه المرأة ذات الحكاية الغريبة، مجنونة حقا؟ ام ضحية قضية من اكبر مآسي الظلم في التاريخ ام هو الانتقام الالهي؟

دونيا خوانا هذه يجب ان تعرفها اولا انها ابنة الملكين فرديناند وايزابيلا اللذين تزوجا وتحالفا على اخذ غرناطة من آخر ملوك العرب في الاندلس، ثم نقضا العهود التي منحاها لاهل تلك الزمردة الاسلامية، وذبحا المسلمين بالاضطهاد العنيف. ولقد مات اولاد هذين الملكين الاربعة من بنات وبنين في حياة الملكين، وبقيت لهما هذه المجنونة. وخطبت الفتاة صغيرة بدافع الطمع السياسي الى ابن الامبراطور الذي كان يحكم النمسا والبانيا وهولندا، وكان فتى بلغ من جماله ان كسب في التاريخ لقب «فيليب الجميل» وحملت خوانا اليه في بلاده، فأغرمت به الغرام الذي دمرها تدميرا. كان هذا الحب هو جنونها الوحيد نسيت معه حتى الصلاة.

اما فيليب فكان زير النساء الذي لا يريد من هذه الزوجة سوى العرش الذي سوف ترث. كانت موضع اهانته وتحديه الدائم، مع انها تمثل امل اسبانيا وتاجها المرتقب. وحين استدعتها امها الى اسبانيا وجاء معها زوجها الجميل فيليب، بلغ من اهانته لها ان ضربها وسجنها في احد اجنحة القصر عدة ايام، فاضربت عن الطعام ولزمت مقعدا لا تفارقه ولا تكلم انسانا، وبدأت مأساتها الطويلة. قرر الزوج العودة الى بلاده فقرر الملكان الابوان منع الابنة من مرافقته. فلما رحل وحده اعتزلت خوانا

الدنيا في قلعة يعرفها العرب باسم «قلعة عبد السلام» قرب مدريد، وامتنعت عن الكلام، ولبست السواد، والزمت الحاشية بلبسه.

وبينما كانت المؤامرات في البلاطات الملكية الاوروبية ما بين فيينا وباريس ومدريد تدور من حول خوانا، كان هم هذه الفتاة الوحيد هو ان تعلم شيئا عن الزوج الغائب. اين هو؟ وماذا يفعل؟ وحين ارسل اليها رسالة لتلحق به ورفضت امها السماح لها بالسفر، حاولت الهرب من الحصن الذي وضعت فيه، فلما منعوها بالقوة بقيت يومين تصيح وتبكي وتلعن وتهز حديد السور المحيط بالحصن حتى انهارت. واستمر عناد خوانا فترة طويلة قبل ان يسمحوا لها بالسفر، ولكنها لم تلق قرب ذلك الزوج الا التعاسة والاهمال. وحين دقت اجراس الكنائس في اسبانيا معلنة وفاة الملكة الام، كانت خوانا هي الوريثة لأملاك امها، وكان هم ابيها ان يكون هو الوارث. فلما كتبت في السر وثيقة تفوض اباها ان يحكم باسمها اراضيها، وقعت هذه الوثيقة في يد الزوج، وكان جزاء خوانا التطويق والعزل عن دنيا الناس. ولجأت الى سلاحها التقليدي: الصمت والاضراب عن الطعام.

وفي رحلة حزينة عاصفة، حملها الزوج الى اسبانيا ليأخذ العرش الذي ورثت، وهناك دفعتها شدة الحب لزوجها الى محاولة الانتقام منه. هربت لتعلن في اجتماع يضم نبلاء الاسبان انها ستحكم البلاد بنفسها، او قد تنيب اباها، ولكنها ترفض ان يكون زوجها هو النائب في الملك. ولم تتبدد مطامع فيليب الجميل بهذا الاعلان مزقا مع الريح فقط، ولكنه بسبب اسرافه على نفسه

اصيب بطفح شديد مع الحمى. وبالرغم من ان خوانا اسرعت على اللهفة والرعب واصرت على تمريضه بنفسها، وعلى سهر الليالي عند قدميه الا انه مات. كان فقط في التاسعة والعشرين وكانت تصغره بسنتين، فأصاب خوانا مس من الذهول، كيف مات؟ لزمت تابوته، اصرت على دفنه في غرناطة، وغرناطة على بعد ٧٠٠ كيلومتر منها، واصرت على نقله بنفسها، وشهدت الليالي الاسبانية موكبا غارقا في السواد، حتى خيله. يسير كلما حل الظلام. فقد اصرت على ان لا يسير بالنهار من شمال البلاد الى جنوبها، وكان يرى في هذا الموكب على ضوء المشاعل تابوت وراءه امرأة، وكوكبة من الفرسان السود.

لم تهتم بشيء بعد ذلك. ارغمها ابوها على ان ينوب عنها في الحكم ثم اخذ الملك ابنها المعروف في التاريخ باسم الامبراطور شارلكان او شارل الخامس، واذا لم يتردد الاب في سجنها في احد الحصون فان الابن ابقى عليها في السجن، وكذلك الحفيد من بعدهما. ٤٧ سنة قضت تنام على الارض لا تستحم الا مرغمة ولا تبدل ثيابها السود حتى لو اهترأت. اهي مجنونة؟ اهي عاقلة؟ اهي ضحية سياسة؟ اهي ضحية الحب؟ الله اعلم! كل ما قد نعلم انها احد كبار المظلومين في التاريخ!.

الرشيد المظلوم

الناس، كل الناس، اذا جاء ذكر هارون الرشيد انداحت امامهم الصور الذهبية ورقصت الاحلام، شيء من ايقاع الفردوس، من بهجته الضاحكة. نلقيها عليه، وسكب من النور نسفح في الدروب ونطلق الخيال وراء خطرات الجواري على المرمر، واستار الحرير تهتز على الونا، وهدير الاعواد والليالي التي لا تحن الى الشمس، والرشيد:

لـه الحب والكأس والمزهر وللناس منه الصدى المسكر

هذه الصورة (الالف ليلية) التي عششت في اذهان الناس، وطلت بالذهب عصر الرشيد وقصوره والجواري والمزامير، هل افاجئك اذا قلت انها ليست سوى اسطورة واسطورة كبيرة؟ ابدا، لم يوجد على عرش الخلافة ذلك الرشيد اللاهي، النواسي إلف الجواري والكأس الذهبية ونشوة المجون، بل ان الثلاثي المشهور: بغداد، الرشيد، ابو النواس، انما هو ثلاثي قصصي ليس غير، ابتكرته وربطت بين جوانبه مخيلات القصاصين ذات النزوات والجموح، لقد كان القاعدة التي اقاموا عليها تلك الملحمة القصصية العالمية «ألف ليلة وليلة» وطغت الصورة «الالف ليلية»

على الواقع أقسى الطغيان، حتى استطاعت أو كادت ان تمحو الحقيقة، وتخلق التاريخ خلقا جديدا، فنحن لا ننظر الى بغداد الا من خلال اعراس الف ليلة، ولا الى الرشيد الا من خلال البذخ المترف والليالي الملاح، ولا الى ابي نواس الا من خلال الراح والجواري والديارات. فهو ابدا:

سكران والكاسات شاهدة ان الكؤوس لها من العدد

والواقع ان هذه الاسماء الثلاثة التي تتلازم في خواطرنا لتغطي صورة العصر العباسي وتمنحه مع الزهر المعزف والدف هذه الاسماء، لم تكن متلازمة ابدا، فلا بغداد كانت عاصمة الرشيد دوما، ولا ابو نواس كان نديمه وشاعره الاثير، ولا الرشيد الالف ليلي كان الخليفة الذي عرفه التاريخ.

والرشيد بالذات، هذا الذي قد نغبط ونحسد، كان من التعساء، التعساء في الحياة، ومن المظلومين بهذه الصورة العابثة الشائعة له في الناس، هل اقص عليكم حقيقته التاريخية؟ لعلنا يجب ان نذكر اولا ان الرشيد وصل الخلافة سنة ١٧٠ هجرية، وهو في الثالثة والعشرين من العمر او نحوها، وقد شهد خلال السنة التي سبقت خلافته قتل ابيه المهدي، ثم اخيه الهادي، في مؤامرات البلاط، وقد قضى السنوات الثماني الاولى من الخلافة يعتمد على البرامكة، ثم كانت حياته بعض الجحيم لأمرين على الاقل:

الاول، انه احس بانحراف البرامكة عنه وتدبيرهم ضده، فاقبل يواجه عملا بعمل وتدبيرا بتدبير كان يقضي الليالي في

التفكر والتدبر حتى فتك بهم قبل فتكهم به، وفي سبيل هذا هجر بغداد. نصف خلافته قضاها هاربا من بغداد. حاول انشاء عاصمة له في الحيرة قرب الكوفة ثم خاف علوية الكوفة فترك الموقع الذي اختار، وانتقل الى الشمال من بغداد الى القاطول وبدأ بناء عاصمة اخرى واقام البنيان وارتفعت جدران القصور، ثم بدا للرشيد انه ما يزال هنا تحت رحمة البرامكة، وقيد اميال من مؤامراتهم فترك البناء وانصرف الى الرقة على الفرات، واتخذها مستقرا له وعاصمة، لا يطرق بعدها بغداد الا لماما.

في السنوات الثلاث عشرة الاخيرة من حياته وخلافته ونكبته للبرامكة، لم تكن ابدا بغداد عاصمة له، نكبة البرامكة نفسها لم تكن في بغداد وانما في الانبار، بينما كان الرشيد عائدا من الحج في مطالع سنة ١٨٧ في طريقه الى الرقة، بعد ان كان في ذلك الحج نفسه قد استوثق بولاية العهد لابنيه الامين والمأمون، بعمل لم يقم به خليفة قبله ولا بعده، هو تعليق العهود في الكعبة واخذ البيعة لها على جميع اهل الدولة.

الامر الثاني، مرض الرشيد، بل مرضه الطويل المزمن، كان هذا الخليفة السعيد الذي تتغنى الليالي باسمه مريضا بالسرطان، وكان يهرب من علته تارة الى الغزو وتارة الى الحج وثالثة الى التعبد، مائة ركعة كان يصلي كل يوم، ويتصدق كل صباح بالف درهم ويوزعها بيده أو بأمر منه، وانما اختار الرقة مستقرا لانها قريبة من الثغور مع الروم، وقد قضى الثلث الاخير من خلافته بعد ان سحق البرامكة في الجهاد على تلك الجبهة.

وقد حج الرشيد تسع مرات في فترة خلافته، بمعدل حجة كل عامين تقريبا عدا حجاته التي سبقت الخلافة، وأبى في اخر حجة له الا ان يزحف ماشيا من الرقة الى مكة على قدميه وقد فعل، كانت تلك الحجة سنة ١٨٨ قبل وفاته بخمس سنوات، وانصرف بعدها للغزو والجهاد.

أكان يا ترى يحاول الشهادة؟ وقد ذكروا انه اتخذ لنفسه قلنسوة كتب عليها «غاز حاج» وكان من عادته اذا حج، ان يحج معه وعلى نفقته ١٠٠ من الفقراء، واذا لم يكتب له الحج ارسل الى عرفات ٣٠٠ رجل بالنفقة الكاملة والكسوة الظاهرة، وقد ختم به الخلفاء الحجاج فما من خليفة حج من بعده ابدا، وقد قال فيه الشاعر المعاصر له ابو المعالي الكلابي عن حق:

«فمن يطلب لقاءك او يرده ففي الحرمين او أعلى الثغور»

والمؤرخون المتصلون بعصره سجلوا انه كان يقسم ليالي اسبوعه، فليلة للوزراء ورجال الدولة يذاكرهم امور الناس ويشاورهم في المهم منها، وليلة للكتاب يجمع رؤساءهم ويحاسبهم عما لزم من امور المسلمين ويرتب لهم ما ظهر من صلاح امورهم، وليلة للقواد وامراء الاجناد يذاكرهم في شؤون الامصار ويوقفهم على ما تبين من صلاح القوة وسد الثغور، وليلة للعلماء والفقهاء، وليلة للقراء والعباد، وليلة يخلو فيها بنفسه لا يعلم احد، قرب أو بعد، ما يصنع، ولا يشك احد انها خلوة عبادة واستغفار هذا ما قالوه عنه.

ضمن هذا الاطار اذن، اين عالم اللذة واللهو وضحكات

الجواري وعربدة الندماء؟ ألم يكن الرجل يلهو، يسمع الشعر والغناء ويسامر الندمان؟ لعلنا يجب ان نعرف اولا ان الرشيد كان يقول الشعر، وانه اكثر من هذا، كان ذواقة للشعر، يطرب له ويستحسن ويجيز ويضرب الارض بمخصرته ولا يرفض سماعه في اي مكان، لكن مجالس الرشيد لم تكن حكرا على ابي نواس، لقد كانت تجمع زعماء القافية الثلاثة في عصره، ابا العتاهية ومسلمة بن الوليد «صريع الغواني» ومروان بن ابي حفصة، ولقد جاهد ابو نواس طويلا ليكون رابع الثلاثة وكان يحضر تلك المجالس العباس بن الاحنف شاعر الغزل والعتابي كلثوم بن عمر واشجع السلمي ومنصور النمري وغيرهم، واما من الادباء فكانت مفتوحة للاصمعي وكان اعذب من تحدث وحكى، والكسائي وابن يوسف القاضي وابي البختري، وفيها من اهل الدعابة والظرف ابن ابي مريم المدني وابو الحسن الدمشقي الملقب بالخليع وابن ابي المغازلي. اما نديم الرشيد الدائم فهو عم ابيه العباس بن محمد الهاشمي، فأين النواسي ضمن هذا الجمع؟

ولعلنا يجب ان نعرف ثانيا ان الرشيد كان طروبا يتعشق هو واخوته السماع والطرب، واخوه ابراهيم بن المهدي من كبار المغنين المشهورين، واخته علية بنت المهدي تحفظ الكتب اخبارها في الغناء وفي العلم بالاصوات، والرشيد نفسه كان كذلك. مغنيه ابن الموصلي قال لمغنيه الاخر ابن جامع ذات مرة: والله ما اعلم احدا بقي على الارض يعرف هذا الغناء معرف امير المؤمنين الرشيد، فقال ابن جامع: حق له والله، انسان يسمع الغناء منذ ٢٠ سنة مع هذا الذكاء الذي فيه.

ولعلنا اخيرا، يجب ان نعرف ان امتلاك الجواري في ذلك العصر كان برهان الثروة لا دليل المجون فهن مدبرات القصر والخادمات والمربيات والطابخات والعازفات والمغنيات، ونعرف ايضا ان الرشيد كان في مجالس أنسه يضرب بينه وبين الخدم والمغنين بستر يحجبه لحضور المجلس طبقات ورسوم، وللكلام والسمر قواعد وحرمات، حتى قال الجاحظ: من اخبرك انه رآه قط يشرب الا الماء فكذبه.

ترى اين الرشيد الاسطورة «الالف ليلي» من هذا الرشيد الذي تراه؟ اليس الرشيد بمظلوم؟

جحا

كالخبز نقضم كلنا اسمه. بالابتسام المرح نردد نوادره، تراثا من التراث الشعبي اصبحت شخصيته. هل ثمة من لم يسمع بجحا؟ من لم يرو نادرة من نوادره؟ انه الاسم الذي تنداح الابتسامة عند ذكره انداياح الدوائر في الماء، جحا رجل النكتة والابتسام، هل هو حقا ذلك الساذج الاحمق الذي نصور، والذي نحمل عليه كل السذاجة او نلقي عليه كل حماقة نعرفها؟ هذه الصورة هل كانت بالفعل صورته؟

لقد صار من كثرة الاصباغ والالوان التي القيت عليه اشبه بمهرج السيرك، ذي الانف الاحمر، والوجه المموه بالصباغ، والشعر المستعار، بل صار رمزا، اسطورة يغتلي فيها ارتياب الناس. حتى لقد فقد عندهم قوامه المادي التاريخي، فهو مجرد شخصية من الوهم: جحا المغفل، جحا الهزل والحمق هذا الجحا اليس بمظلوم؟

من هو اولا هذا الرجل؟ الاصح ان نقول من هما الرجلان؟ بلى، ثمة في التاريخ اثنان يحملان اسم جحا. والاثنان رجلان تاريخيان حقيقيان. والاثنان عرفا بالنكتة الساخرة، تلسع الحقيقة

لسعا. والاثنان تحولا الى رمز، الى اسطورة، ضاع معها الواقع فهما يقضيان مسيرتهما التاريخية مظلومين، مظلومين.

اول الجحوين عربي، من قبيلة فزارة العربية، اسمه «دجين بن ثابت اليربوعي البصري». ولد في اواخر عهد معاوية بن ابي سفيان، وقضى الجانب الاخير من حياته في الكوفة. وكان يكنى بابي الغصن، وقد عمر فوق المائة وتوفي سنة ١٦٠ هجرية، ولم يكن الرجل من الحمقى ولا النكرات، ولكنه احد التابعين والفقهاء، ومن رواة الحديث فقد رأى انس ابن مالك وكانت امه خادما له، وروى عنه اسلم مولى عمر بن الخطاب وهشام بن عروة، وروى عنه مسلم وابن مبارك والاصمعي الذي نعرف. ويذكرون ان ما يقال فيه مكذوب عليه، ولكن كان له جيران مخنثون يمازحونه ويتزيدون عليه، وهم الذين اذاعوا النوادر عنه بين الناس واذاعوا لقبه «جحا، جحا، جحا»!

وتذكر المصادر التراثية انه كان كيّساً ظريفا على جانب حسن من صفاء السريرة والسماحة ومن الفطنة والذكاء والعلم، ولكنه، على ما يبدو، كان يتحامق احيانا عن عمد، يقتطف النادرة ليثير الضحك. يقبل ان يتعابث معه الاخرون ليصفعهم بالنكتة. وبلغ من شهرة هذا العبث الذي يتندر به الناس ان عمر بن ابي ربيعة الشاعر الماجن استغله في بعض غزله، قال لحبيبته:

دلهت قلبي وتلعبت بي حتى كأني من جنوني جحا

وسرت النوادر على السنة الناس حتى دخلت كتب الادب. كانت افلامهم الفكاهية، رواها الجاحظ ورواها الميداني صاحب

الامثال، واشار اليها الجوهري في «معجم الصحاح» وجمعها بعضهم في تلك الفترة القديمة نفسها في كتاب «نوادر» ذكره ابن النديم في الفهرست بين كتب النوادر والمغفلين.

وثاني الجحوين تركي وعلى وجه الدقة سلجوقي رومي. وسلاجقة الروم نعرفهم ونعرف انهم كانوا من الترك الذين نزلوا في بلاد الروم. اسم جحا التركي هذا «نصر الدين خوجة» وقد ولد في بعض قرى الاناضول في القرن التاسع الهجري، الخامس عشر الميلادي. وقد كان ابوه امام جامع القرية التي ولد فيها فسلك مسلكه، ثم خلفه في الامامة قبل ان ينتقل، وعمره ثلاثون سنة الى مدينة اقشهر، فيستقر فيها قرابة خمسين سنة، يعمل في القضاء والتدريس حتى توفي، فقبره فيها موجود الى اليوم، تحت قبة تقوم على اربعة اعمدة، وعلى الضريح قاووق عظيم، وعلى الشبابيك نذور وخرق تلتمس كرامات الشيخ وبركاته، ويذكرون عنه انه ساح في بلاد الاناضول واعظا مرشدا، وعرف بالصلاح والزهد من جهة، وبالجراة على الحكام والامراء والقضاة من جهة اخرى، وكانت داره محط الواردين من اهل القرى والغرباء، وقد انقذت وساطته بلدة سيوريحصار من التخريب والنهب حين حاصرها تيمورلنك الطاغية الاعرج.

نصر الدين خوجة التركي اخذ عن زميله السابق العربي لقبه: «جحا» واشتهر به، فهو «جحا الترك»، وهو جحا الثاني مجدد نوادر الاول، ولكنه بجانب نوادره ولي من اولياء الله الصالحين، ومن اقطاب اصحاب الطرق الصوفية واهل الكرامات. هذان هما الجحاوان في التاريخ: تابعي عالم صافي السريرة، وقاض امام

صار من الاولياء المباركين. او هذا هو جحا في التاريخ؟ والحقيقة، فماذا اضحى لدى الناس؟ اضحى الاحمق الذي يقطع العصور ومن ورائه حمار اذكى منه؟ ومن حوله جوقة الصبيان يفضح ظلم الحكام ورياء الناس وما يمكرون؟

ولكن بمنطق المغفل وسذاجة الاطفال. الست ترى معي، ان جحا مظلوم؟ اولسنا نظلمه في كل مرة نروي بها احدى نوادر جحا؟

الامين المفترى عليه

في قصص الحصار الذي ضربه جيش المأمون بن الرشيد على اخيه الخليفة الامين ببغداد يوم تحاربا على الخلافة، ثمة قصة تروى: كانت بغداد كلها قائمة على قدم تدافع الجيش المحاصر الذي انتشر في الارياض حول العاصمة. وكان بين المدافعين رجل يقال له «السمرقندي»، كان يرمي عن مناجيق نصبت في السفن من باطن دجلة، ولم يكن حجره يخطىء فكلما اشتد امر المحاصرين بعثوا اليه، فاخذت حجارته تغني في الاجواء وتفتك بالمهاجمين، والناس يصفقون له ويحيونه ويدعون له، ثم هزم المدافعون وسقطت بغداد وقتل الامين واحرقت المناجيق التي كانت على دجلة فاشفق السمرقندي على نفسه، وتكارى بغلا وخرج هاربا، ولكنه لم يبعد حتى قبض عليه وسيق الى شاطىء دجلة، حيث كان يضرب المناجيق ليصلب حيا. واجتمع خلق كثير فجعل يقول قبل ان يشدوه: «انتم بالامس تقولون لي لا قطع الله يا سمرقندي يدك واليوم قد هيأتم حجارتكم ونشابكم لترموني»، ولكن الخشبة رفعت به والحجارة والنشاب نزلا عليه، والرماح تناولته، ثم القوا تحته القصب والحطب وجعلوه طعمة للنار، أليس كذلك يفعل الناس بمن يعثر به الحظ؟ أليس كذلك

فعل الناس والمؤرخون بصاحب القضية التي دافع عنها السمرقندي؟ ألم يزيدوا اللآلىء في اكليل المأمون الظافر ويذبحوا بالتهم والاساطير الامين؟ ألم يرموه بالحجارة والنشاب ويحرقوه في التاريخ؟

تشجيك قصة الامين لو عرفت قصة الامين. الظلم الذي عضه لم يكن ظلما واحدا ولكنه ظلم وثان وثالث. ظلم، بانه، وهو الخليفة الوحيد الهاشمي، ابا واما بين جميع الخلفاء العباسين السبعة والثلاثين، لم يمتع بالخلافة سوى اربع سنوات ونيف قضى ثلاثا منها في الحرب الاهلية وغصص الاضطراب والقلق، وظلم ثانية بانه قتل وهو في الثامنة والعشرين فقط من الشباب الجميل، وعلق رأسه على باب بغداد ثم نقل الى خراسان ليقدم على ترس الفولاذ لاخيه المأمون. وظلم ثالثة، وهو ابشع الظلم في صورته التي تركت للتاريخ. وماذا اروي من هذه الصورة الخرقاء؟

يذكرون ان امه زبيدة وهي حامل به رأت فيما يرى النائم اربعة من الملائكة يحفون بسريرها وسرير ابنها وهو طفل، يقول اولهم: ملك قصير العمر، ضيق الصدر، عظيم الكبر، واهي الامر، كثير الوزر، شديد الغدر. ويقول الثاني: ملك قصاف، مبذر متلاف، قليل الانصاف، كثير الاتلاف، ويقول الثالث: ملك ضخم، قليل الحلم كثير الازم، قطوع للرحم، ويقول الرابع: ملك غدار كثير العثار، سريع الدمار. ألست ترى الاصطناع والزيف في السجع المنمق كسجع الكهان؟ ويذكرون ان اباه الرشيد حين اراد اعطاءه ولاية العهد، تردد وانه اشرك معه اخاه المأمون سنة ١٨٣ قائلا: اني أرضى سيرته، واحمد

طريقته، واثق بحسن سياسته، واني لا تعرف فيه حزم المنصور ونسك المهدي، وعز نفس الهادي، اما الامين فقال عنه فيما يقولون، اني لا اخاف تخليطه على الرعية، ففيه ما فيه من الانقياد لهواه، والتبذير لما حوت يداه، ومشاركته النساء والاماء في رأيه. كل ذلك يزعمون ان الرشيد قاله في الولدين ولم يكن عمرهما يجاوز اثنتي عشرة سنة. ويذكرون انه بعث ليلة تولي الخلافة في طلب الملهين من كل ناحية، وانه في اليوم التالي لبيعته امر ببناء ميدان حول قصر الخلافة للصوالجة واللعب، وانه امر فبنيت له خمس حراقات في دجلة على خلقة الاسد والفيل والعقاب والحية والفرس، وانفق في عملها مالا عظيما، وانه اقتنى سفينة عظيمة انفق فيها ثلاثة ملايين درهم، واتخذ اخرى على خلقة شيء في البحر يقال له الدلفين، هذه الاعمال يوم اقيمت كانت فتنة بغداد، كانت من عجائبها، والمباهج التي تتوج الق الخلافة وعصرها الذهبي الذي بلغت، فلما انهار الامين صارت من نقائصه وسرفه واي سرف في هذا؟ وقد ترك له الرشيد تسعمائة مليون درهم في الخزانة، وكان خراج دولته قرابة ستمائة مليون كل سنة. ويذكرون انه كان على اللهو الابله والمجون النواسي. قالوا انه كان يصطاد السمك وبغداد محاصرة بجيوش اخيه، وجاء من يخبره ان المدينة استسلمت فأجاب: «ويلك، دعني فان كوثر الخادم قد اصطاد سمكتين وما اصطدت غير واحدة».. ويقولون انه اقام معركة من اجل خادم تركي جميل، وانه قاد بنفسه في ليلة انس جوقة من ١٠٠ جارية تغني، وانه كان يقضي الليالي بدل التدبير، في الشراب ومنادمة ابي نواس، ولا يرون تناقضا بين هذا الذي يروى وبين الخطب التي خطب، والجيوش التي عقد لها

الالوية، والتدابير التي اتخذ، ولا يرون بخاصة انه هو الذي سجن ابا نواس مرات في الخمر، وطال سجنه له وابعاده بسبب الكأس والقمار. ويذكرون ان الامين غدر بأخيه، نكث العهد الذي عاهده عليه وعاهد اباه، حاول نقل ولاية العهد لابنه بدل اخيه.. وينسون ان تلك كانت سنة جميع الخلفاء، وهذا هو ما فعله من قبله جده المنصور وجده المهدي وابوه نفسه، كلهم حين تمكنوا من الخلافة، ازاحوا ولي العهد الذي كان يليهم، وحولوا الامر لاولادهم، ينسون ان المهدي والهادي كلاهما قتل في هذا الامر نفسه، ولكن اعمال سابقيه نجحت فاصبحت مشروعة مقبولة، وفشل الامين فانصبت على رأسه الاقذار، وينسون فوق هذا وذاك ان الامين ظل حتى اللحظة الاخيرة عطوفاً على اخيا المأمون، وكان للمأمون في بغداد ولدان وزوجة فما مسها احد بسوء، ورفض الامين ان يجعل منهما رهائن حتى قتل فانصرفوا الى المأمون في خراسان. ويذكرون اخيرا انه كان فاسد السياسة، سيء السمعة، كريها الى الناس، والسؤال المحير هنا: كيف وقفت بغداد ١٥ شهرا تدافع عن الفاسد السيء، الكريه؟ ومن ذا الذي وقف يدافع؟ وقف العامة، وقف بسطاء الناس والمساكين. مائة الف منهم جعلوا من صدورهم اسوارا له ترد المناجيق والفرسان والعدو، كانوا عراة يحملون مخالي الحجارة والاجر والمقاليع للضرب، ويضعون الخوذ على الرؤوس، ولكن من الخوص، ويحملون الدرق والتروس ولكن من الحصر والخرق، والبواري، ولهم رماح ولكن من القصب، والاعلام ولكن من الخرق والبوقات ولكن من قرون البقر. ومع ذلك فقد نظموا انفسهم، فلكل عشرة عريف، ولكل مائة نقيب،

ولكل الف قائد، ولكل عشرة الاف امير.

شاعر رأى هذا كله فقال في ذلك الوقت:

«خرجت هذه الحروب رجالا　　لا لقحطان لا ولا لنزار
معشر في جواشن الصوف يغدون　　الى الحرب كالاسود الضواري
وعليهم مغافر الخوص تجزيهم　　عن البيض والتراس البواري
ليس يدرون ما الفرار اذا　　الابطال عادوا من القنا بالفرار
واحد منهم يشد على الالفين،　　عريان ماله من ازار
ويقول الفتى اذا طعن الطعنة　　خذها من الفتى العيار

خمسة عشر شهرا اوقف هؤلاء جيوش المأمون امام بغداد فهل كانوا يدافعون عن الابله الماجن السكير الفاسد؟ وحين قتل الامين قالت عمته في رثائه:

«ابكيك لا للنعيم والانس　　بل للمعالي والرمح والترس»

وقال الحسين بن الضحاك:

«يا خير اسرته وان زعموا　　اني عليك لمثبت اسف
هتكوا بحرمتك التي هتكت　　حرم الرسول ودونها السجف»

وقال:

«سنندب بعدك الدنيا جهارا　　وتندب بعدك الدين المصونا»

فهل كان هذا الرثاء الا اقذع الهجاء لو ان الامين كان ذلك الخليفة الابله الماجن المستهتر الذي يصورون؟ ولكنها البقرة متى وقعت كثرت فيها السكاكين، وهي ايضا الدعاية المأمونية التي شاءت ان تبرر وتغطي قتل الاخ اخاه في الخلافة، قتل قابيل لهابيل. قابيل ماذا فعلت باخيك؟

خليفة لم يسجله التاريخ

هل سمعت بالخليفة عبدالله بن الزبير؟ انت وانا قد نعرف اسمه بعض المعرفة او جيد المعرفة انه الصحابي ابن الصحابي والصحابية. ابوه الزبير بن العوام، وامه هي ذات النطاقين اسماء بنت الصديق ابي بكر، وكان اول ولد يولد للمهاجرين بعد الهجرة الى يثرب، ومع ذلك، فانظر في قوائم خلفاء الاسلام هل تجد له من ذكر او اسم؟ الصورة التي تجدها له في الكتب هي الصورة الاخيرة، التي التقطت له وهو جثة شائهة على خشب الصلب قرب الكعبة، وجند الحجاج بن يوسف الثقفي ترعب الارض في ام القرى، وتمر به امه اسماء، وهي تجاوز التسعين، فتنظر الى الخشبة وتقول: «اما آن لهذا الفارس ان يترجل؟» ويرجلونه ويقبرونه وتقبر معه قصة خلافته التي دامت حوالي اثنتي عشرة سنة.

فلا تذكره التواريخ الا على انه بعض الثائرين، وينظم المؤرخون خلفاء العهد الاموي، امويا بعد اموي منذ معاوية حتى مروان الاخير ولا مكان. لا مكان لهذا الذي بايعته كل اقطار الاسلام حتى الشام بين الخلفاء، فما قصة الرجل؟ ما قصة هذا

الخليفة المنكور الخلافة؟

قصة ابن الزبير مع الخلافة تبدأ في اواخر عهد معاوية. كان يمشي الى الستين وهو احد ثلاثة كانوا وجوه الناس في الحجاز: الحسين بن علي وعبدالله بن عمر، وعبدالله بن الزبير. وبعث الخليفة الاموي يدعوهم، يدعوا هؤلاء لمبايعة ابنه يزيد، الشاب في ولاية العهد، فبايع الناس الا هؤلاء الثلاثة. وتوفي معاوية وهو يعلم ذلك. توفي وهو يقول لابنه: «لست اخاف عليك من قريش الا هؤلاء الثلاثة. فأما الذي يجثم لـك جثوم الاسـد ويراوغك مراوغة الثعلب فاذا امكنته فرصة وثب، فـذاك ابن الزبير» وحفظ يزيد الوصية الابوية، ما ان سلموا عليه بالشام بالخلافة سنة ٦٠ للهجرة، حتى بعث الى عامله على المدينة أن يأخذ الثلاثة بالبيعة اخذا شديدا ليس فيه رخصة، ففشل العامل في المهمة. فشل على الاقل في اخذ بيعة الحسين وابن الزبير. لقد تحرك الاثنان الى مكة والكعبة فليس اليهما سبيل، وحين خرج الحسين الى العراق ثائرا وصرع في كربلاء سنة ٦١، ادرك ابن الزبير انه أضحى المرشح الاوحد للخلافة، وشهدته بطاح مكة واركان الكعبة يعظم مقتل ابن بنت رسول الله، ويعيب على اهل الكوفة والعراق خذلانه، ويعتبر نفسه المطالب بدمه، وقال له الناس: «ايها الرجل، اظهر بيعتك فانه لم يبق احد ينازعك هذا الامر». ولكنه كان من الحذر بحيث اظهر انه عائذ ببيت الله الحرام، وفي ظل البيت العتيق كان يتقبل بالفعل بيعة الناس في السر، ويتلقى الوفود، ويخطط اركان دولته المقبلة.

وتـروي الروايـات ان الخليفة عـرف فـاقسم ان يقيـده في

السلاسل، ثم اراد تخفيف الامر فأرسل اليه سلسلة من فضة ليأتي اليه بها. فأسمع ابن الزبير رسل يزيد من قوارص الكلم ما شاع في مكة والمدينة، وجعل الرجل يصبح موضع الاعجاب والامل، وارسل اليه يزيد بجيش يقوده اخوه عمر بن الزبير، فهزم عمر وذاق مر العذاب على يدي اخيه، ورمي في بعض السجون، وصارت بيعة الناس لعبدالله بالخلافة بيعة علنية، صار خليفة الحجاز، واراد يزيد ان يحسم امر الحجاز مرة واحدة فارسل عليه جيشا ضخما من اثني عشر الف رجل، اخذوا عطاءهم كاملا ومع كل عطاء ١٠٠ دينار، فكانت «واقعة الحرة» التي هزم فيها اهل المدينة اولا، ثم اقبل الجيش على مكة فحاصرها على ابن الزبير شهرين وبعض الشهر. وفجأة وردت الانباء بوفاة الخليفة يزيد، فاضحى عبدالله بن الزبير الاسم الابرز والاحد للخلافة. حتى قائد الجيش الاموي اقبل يفاوضه ان يبايعه على ان يخرج معه الى الشام، فرفض الخروج. وبينما كان الامويون في الشام في «حيص بيص» لا يدرون ما يفعلون، لاسيما بعد ان تنازل معاوية الثاني ثم توفي عن الخلافة واصطدم بعضهم ببعض، كان ابن الزبير يتقبل البيعة من اهل مصر واهل العراق والجزيرة العربية ومعظم قوى الشام نفسها، ويرسل ولاته الى المدينة والامصار، ويعطي اخاه مصعب بن الزبير ولاية العراق، وهكذا كان ابن الزبير الخليفة الثامن من خلفاء الاسلام.

الاحداث التي جرت بعد ذلك كانت محاولة من بني امية لاسترداد الخلافة التي ضاعت منهم. دامت هذه المحاولة تسع سنوات ثقال، غيروا خلالها البيت الحاكم من آل ابي سفيان الى

آل مروان بن الحكم، وقاتلوا في الشام والعراق عددا من الثورات والثائرين، وبخسر ابن الزبير في المعارك مصر، ثم خسر العراق بعد مقتل اخيه مصعب، وتفرغ عبد الملك بن مروان في النهاية لعبد الله بن الزبير في مكة، فارسل عليه الحجاج بن يوسف الثقفي الذي رمى حتى اركان الكعبة بالمجانيق ليخرج منها ابن الزبير، وحين ندرت الاغذية في مكة بدأت المجاعة، وبدأ انصار ابن الزبير يتسللون هربا حتى لم يبق من حوله الا بعض اصحابه، ذهب الى امه العمياء: «اماه لقد خذلني الناس، حتى ولداي فماذا اصنع؟» قالت: «يا بني ان كنت قاتلت لغير الله فقد هلكت واهلكت، وان كان لله فلا تسلم نفسك».

كان يومذاك في الثالثة والسبعين من العمر وخرج للقتال اليائس، عليه لباس الحديد، ولم يعرفه جند الحجاج حين اصيب حتى صاحت جارية من جواريه «وآه، امير المؤمنين»! فعرفوه. فاما رأسه فطافوا به في مصر واما الاشلاء فنصبت مصلوبة. لقد خسر المعركة بلى، ولكن اليس من الظلم في التاريخ ان يحذف اسم هذا الخليفة من قوائم الخلفاء، وقد نودي بالخلافة وبأمرة المؤمنين حوالي اثنتي عشرة سنة؟

المعتمد الملك السجين

الذين يعانون الادب العربي يعرفون قصة «يوم الطين» وصاحب «يوم الطين» المعتمد بن عباد، ملك اشبيلية في جنوبي الاندلس خلال النصف الثاني من القرن الخامس الهجري، انه احد ملوك الطوائف الذين تقاسمت اسرهم حكم الاندلس مدينة مدينة، وكانت اشبيلية من حظ بني عباد، استقل بها جده، ثم ابوه، ولكن المعتمد يكاد يكون الاشهر فيهم وفي ملوك الطوائف جميعا، يكاد يكون اكثر الاجراس رنينا واصداء في التاريخ، انه لم يكن ملكا فقط، ولكنه كان قائدا ايضا، فهو احد ابطال معركة الزلاقة سنة ٤٧٩ هجرية التي انتصر فيها العرب على الفرنجة بعد طول تخاذل وهزيمة، وكان المعتمد، الى هذا وذاك وفوق هذا وذاك، شاعرا من ادق وارق رجال القوافي، قالوا كان يمثل الشعر من ثلاثة وجوه:

اولها، انه كان يقول شعرا يثير الاعجاب وترويه الرواة والمغنون.

والثاني، انه كان يرعى شعراء الاندلس اجمعين بل شعراء الغرب الاسلامي كله. فالى بلاطه لجأ شعراء صقلية وافريقيا

حين غزا النورماند بلادهم، واستولوا على بعضها وهددوا الباقي.

الثالث، ان حياة المعتمد نفسها، كانت شعرا حيا، مأساة شعرية كاملة.

وقصة «يوم الطين» تتعلق بجاريته التي طافت حولها حياته، اعتماد الرميكية، كانت لدى تاجر من مياسير اشبيلية يسمى رميك ولقيها المعتمد في احدى نزهاته، مع صديقه الشاعر ابن عمار واعجب بها، اذ اجازت على البديهة شطر بيت اعجزه كما اعجز ابن عمار اتمامه، قال المعتمد وهو ينظر الى قطرات النسيم على الماء امامه:

«نسج الريح على الماءزرد»

ثم ارتج عليه وعلى صاحبه فلم يفتح عليه بالشطر الثاني فانبرت اعتماد تقول:

«يا له درعا منيعا لو جمد»

وصفق المعتمد واشترى الرميكية من صاحبها وتزوجها، ومنذ ذلك الوقت اضحت سيدة بلاطه وقلبه معا، تسرف في دلالها ونزواتها، فلا يحرمها المعتمد سرفا ولا نزوة، طلبت اليه ان يريها الثلج، فزرع لها اشجار اللوز على جبل قرطبة، حتى اذا نور زهره حالت الاشجار موجا من الثلج الابيض، ورأت الرميكية ذات يوم بعض البنائين يغربلون التراب ويغوصون في الطين باقدامهم ويصوغون اللبن، فاشتهت على المعتمد ان تخوض في الطين وتفعل ما يفعلون، وحار الرجل، ليس الطين من مقام

قدميها ولكنه امر فسحقت اشياء من الطيب والكافور وذرت في ساحة القصر حتى عمته ثم نصبت الغرابيل وصب فيها ماء الورد على اخلاط الطيب وعجنت بالايدي حتى عادت كالطين، وخاضت الرميكية فيها تشتهي مع الجواري في عرس الطين والطيب.

على ان المعتمد لم يكن الشعر والرميكية فحسب، ولكنه كان رجل الدولة الابرز بين ملوك الاندلس في عصره. لقد حاول ان يوحد جنوب الاندلس كله، اخذ قرطبة، وغلب على اصحاب ملك غرناطة وطليوس والمرية ورندة ومالقه العريقة، كانت تلف الحصون سنابك خيله كانت تخوض العواصف. سفراؤه والوفود كانت تملأ الدروب بينه وبين الامراء الاخرين، بل كان احيانا يتحالف مع الفرنجة ويدفع لهم المال ويستعديهم على زملائه الامراء الاخرين، وفجأة ظهر في الافق الشمالي ضده الخطر الكبير، الانفونش ملك كشتاله، هذا الملك بعد ان فرض اجهزته والنفوذ والعنفوان على عدد من ملوك الطوائف استطاع ان يحتل طليطلة، احصن مدن الاسلام في الشمال، كان الملك يخاف الانفونش من قبل، بلى، اما الان فانه يرى فيه غول المصير، الخطوة المقبلة للانفونش هي دون شك هي هذه الامارات الاندلسية المتناحرة في الجنوب ومنها، مملكة المعتمد، ضربة طليطلة كانت الضربة التي انهت ونبهت في الوقت نفسه هذه الممالك الفسيفسائية الى مصيرها الفاجع المقبل وايقظت فيها الضمير، جموع الاندلسيين، الشعب العادي، البسطاء والعلماء، كانوا اكثر وعيا من الزعماء يومذاك كانوا منذ زمن يتطلعون الى

القوة النابتة في المغرب والتي كانت اسمها «دولة الموحدين». كانوا يتمنون لو ان تلك القوة الاسلامية الجديدة عبرت البحر الى الاندلس وتحت الويتها اميرها يوسف بن تاشفين، فكنس هذه المالك التافهة، كان الامل في تقواه وجهاده وجيشه واداراته، وكانت الوفود والعلماء تذهب الى بلاطه مستصرخة باكية. وحين سقطت طليطلة طرقت هذه التمنيات ضمائر الملوك الممزقين، وجمع المعتمد بن عباد في قرطبة زعماء الناس والفقهاء واستفتاهم في استدعاء ابن تاشفين لدفع الكارثة الفرنجية المقبلة، ولما ابدى بعضهم التخوف من ان يطمع هذا الرجل بالبلاد اجاب المعتمد بكلمة كانت كأنها رؤية من وراء الغيب بمصيره، قال «رعي الجمال خير من رعي الخنازير، لان اكون اسيرا عند ابن تاشفين خير من ان اكون اسيرا للانفونش»، واستجاب ابن تاشفين للدعوة واجتاز البحر بألويته والفرسان وكان من نتيجة هذا الزحف حلف اسلامي حقق معركة الزلاقة، معركة المعارك الاندلسية، خاضها المعتمد في بلاء لم يعهد مثله لاحد، اثخنته الجراحات وضرب على رأسه ضربة خلقت مغفرة ووصلت صدغيه وجرحت يمناه وطعن في جنبه وعثرت تحته ثلاثة افراس وانجلت الالوية والاشلاء عن النصر الاسلامي العظيم.

بعد سنتين ذهب المعتمد بنفسه مرة اخرى الى ابن تاشفين في المغرب يستنجده. في المرة الثالثة دارت جيوش ابن تاشفين بالمعتمد نفسه، حاصرته في اشبيلية، عاصمة ملكه. واخذته مع اولاده واهله الى المنفى، والمنفى كان في ارمات البُليدة المنسية بجوار مراكش.

اربع سنوات قضى المعتمد هناك قبل ان يموت فقرا وغما، تخلى عنه الجميع هناك حتى المؤرخون افاضوا في قصص خمرياته والشعر والرميكية، وما ورطته به من الخلاعة والاستهتار، والمجاهرة حتى طغى ذلك على اخبار جهاده والمروءة والسياسة الحكيمة حتى الرميكية نفسها هناك في المنفى قالت له ذات يوم «ما رأيت منك يوما حسنا» فقال الملك المنكوب «حتى ولا يوم الطين».

يتهمونه وهو البريء

قال صاحبي وهو يرفع يده مقاطعا ومكررا الكلمات كانما حبل الحديث وصل لحظة الانقطاع: لا، لا، لا يمكن ان تقول لي ايضا ان ميكافيللي مظلوم! لا يمكن ان تسلك هذا الاسم بين المظلومين في التاريخ. امن السهل الدفاع عن ابليس.. عن اجير الشيطان. الرجل الذي قلب اسم القيم رأسا على عقب، جعل عاليه سافله، اقام الكذب والغدر والرياء في قمة الفضائل، لا يمكن الا ان يكون مستحقا سمعته الشيطانية. كالغراب، كالانجيل الاسود يلوب كتاب «الامير» في ذاكرة الناس. الرذائل؟ بلى وجدت منذ وجد الانسان، ربما كان كل منا في اعماقه ميكافيلليا حتى العظم. ربما، لكنه يستشعر في ذلك على الاقل الخجل حتى لو واجه نفسه، ميكافيللي وجد الجرأة لمدح الرذائل، نظّرها، جعلها من المبادىء المقبولة الفاضلة والمقررة. واي الخدمات قدم لابليس اللعين في ذلك؟ ثلاثة ارباع الجماجم النابحة في القبور انما هي ضحية الرذائل الميكافيللية ضحية المبدأ الميكافيللي المشهور «الغاية تبرر الواسطة» اشياء كثيرة غير هذه قال صاحبي، وانتظرت، انتظرت حتى هدأ سيل اللعنات يصبها على الرجل. خيل الي اننا في محاكمة لمجرم، وان صاحبي هو النيابة

العامة التي تطالب برأسه، برأسه الطائحة في التراب منذ ٥٠٠ سنة، قلت لصاحبي: ما رأيك في ان ازيدك تحطيا للرجل، في ان اسهم ايضا فيه بسكين؟ الميكافيللية تجمع من المعاني ما تحمله كلمة الشيطان في مفيستو رواية فاوست.

حتى الشيطان نفسه يعطونه في الغرب لقب «نك العجوز» لان نيقولا هو اسم ميكافيللي. شهرة الرجل بالخداع والنفاق جعلته مثلا في القصص. جميع مسرحيات الكتاب الكلاسيكيين الكبار كررت اسمه. كرست ابليسيته، واصباغ الثعالب على وجهه. شكسبير في روايته «زوجات ويندسور المرحات» يضع على لسان احدى شخصياته قوله: ماذا؟ أأنا مخادع؟ أأنا ميكافيللي؟!

ومارتسون في روايته «بيغماليون» يكتب وكان احد الميكافيلليين الملعونين يحمل المصباح للشيطان فترة من الزمن، اما كتاب ميكافيللي الاساسي «الامير» فقد وضع على قائمة الكتب المحرمة منذ سنة ١٥٥٩. حتى محاكم التفتيش، ام الارهاب الدموي، قررت احراق جميع كتبه، لقد ظل اسم ميكافيللي المشجب، الذي يعلق عليه الادباء والسياسيون والمفكرون والعامة كل المثالب عدة قرون، كل المحاولات لتحسين سمعته كانت تصطدم بما اورده في كتابه الاسود من آراء مباشرة المعاني، صريحة، قاسية الصراحة، أشبه باللكمة التي يتلقاها الانسان على الاذن. ومع كل ذلك يبقى سؤالان في الرجل وفي الكتاب: الاول، هل كان الرجل يمثل في حياته، في عمله، والسلوك، تلك المبادىء التي صورها؟ ميكافيللي اولا احد رجال امارة فلورنسا في ايطاليا، في ذلك العصر الذي اكتشفت فيه اميركا، والذي عرف في ايطاليا

بعصر النهضة الذهبية كما يسمى ايضا بـ «عصر التقاة» وكان ميكافيللي مع اسرته من اعداء الحكم الاستبدادي الذي تمارسه اسرة ميدتشي الحاكمة. كان من غلاة الدعاة للجمهورية ولحرية الشعب، وقد اتيحت له الفرصة للحكم بعد احدى الثورات فاختير سكرتيرا للمستشارية الثانية في جمهورية فلورنسا، يشرف على شؤونها الخارجية والعسكرية. ذهب في اربع وعشرين بعثة دبلوماسية، ثم كان من حراس الحرية والسلام العشرة للدفاع عن الحرية في الجمهورية الناشئة، وقضى في عمله السياسي هذا ثلاث عشرة سنة حتى جاء انقلاب اخر فطرده الى المنفى، وقضى بقية حياته بعد ذلك في منفاه بالقرية الريفية على التعاسة والفقر. نهاره مع الحطابين او مع الطحان والقصاب في القرية. والليل مع القراءة والتأمل في مصير بلاده والكتابة. كتب عدة كتب، كتابه السياسي وحده هو الذي قفز به، طار به، ترك اسمه على شفاهنا حتى اليوم. كتبه لامير الميديتشي كان يأمل فيه ان ينقذ ايطاليا من التجزئة والفوضى، ولذلك كان يجد ان يعمل هذا الحاكم على ذلك بكل وسيلة فـ «الغاية تبرر الواسطة».. اي واسطة، ولو كانت القتل والغدر؟ اراد ان يداوي امراض ايطاليا بالسم ومن السموم الناقعات دواء. ولكن ميكافيللي لم يرسل الكتاب لاميره، بله لم يطبعه، نقل بعضهم نسخا عنه مخطوطة وطبع لاول مرة بعد موت ميكافيللي بخمس سنوات.. لكنه طبع عشرين مرة بعد ذلك خلال السنوات العشرين التالية. على ان سيرة ميكافيللي سواء في الحياة او في الحكم لا علاقة لها ابدا بكتابه، ولا بما في كتابه من الرأي، ثمة انفصال شبه كامل بين ممارساته في السياسة والحياة، وهي ممارسات فاضلة لا غبار عليها، وبين الافكار

الجارحة التي نشرها في كتابه. كان، كأنما ينتقم لفشله ومنفاه، يتمنى توحيد بلاده وحريتها ولو بالغدر والجثث. بلى، امير الميديتشي الذي اهدي اليه الكتاب كان رمز الرذيلة. هل في التاريخ اكثر فضيحة من قيصر بورجيا؟ جرائمه، ضحاياه، لياليه الحمراء، صفعاته للاخلاق كانت تجسيدا للشيطان الميكافيللي. بطل كتاب «الامير» الحقيقي هو هذا البرجي الرهيب. هل كان كتابه تبريرا لحياة قيصر؟ اعتذارا وضربة رياء وتملق، من يدري؟ قلائل هم الذين اتهموا ميكافيللي بذلك.

أما السؤال الثاني هو في الكتاب نفسه. ميكافيللي يقول: انه كتب في الكتاب خلاصة ما رآه من اساليب الحكام الناجحين في التاريخ. استخلص اساليب النجاح السياسي ووضعها بكل عريها الفاضح امام الاعين، الدولة في رايه هي القوة، والقوة اشكال: منها السيف ومنها الخداع والكذب والنفاق والغدر. اشد الأفكار خطرا على السياسي في رأيه هي ان يؤمن قواعد الاخلاق الفردية هي التي يجب ان تسيطر في السياسة ايضا، الميدانان مختلفان جدا، ولم يزعم الرجل انه يكتب كتابا في الاخلاق، كتابه كان في السياسة فحسب، يعتبرونه مؤسس علم السياسة الواقعية. وهو لم يزعم انه يبتكر تلك الاساليب والوصايا.

وان كان اسلوبه التقليدي المباشر يوحي بذلك، ولكنه يؤكد انه خلص الى كل ما خلص اليه بالتأمل والاستقصاء في اعمال العظام، خلال سنوات طوال من الانزواء. فهو اذن انما يقرر واقع السياسة التاريخي. يؤكد اساليبها المتبعة ولا يشق لها طرقا جديدة. واذا صار كتاب ميكافيللي كتاب المخدة لكل سياسي واذا

درسه، واستخدمه، فيما يذكرون، ريشيليو الفرنسي، وكريستينيا ملكة السويد، وفردريك ملك بروسيا، وبسمارك الالماني، وكليمنصو الفرنسي، او اختار موسوليني موضوعا لاطروحته في الدكتوراه هذا الكتاب، او كان هتلر يضعه قرب سريرة عند النوم، ولينين وستالين اذا كان ذلك، فما ذنب صاحبه؟ لو لم يكتبه ميكافيللي، فهل كان امتنع السياسيون عن الكذب والقتل والغدر والنفاق؟ واذا كانوا يقرأونه، فهل كان يعلمهم جديدا لا يعلمونه او لا يمارسونه؟ وشهرة الكتاب أليست صدى لرذائلنا؟ ولو لم تكن هذه الغرائز الوحشية في النسيج العميق، العميق من تكويننا فهل كان الكتاب يصبح اكثر من قصاصات ورق؟ او اكثر من مخطوط يأكله التراب ان لم يكن قد اندثر؟ واذن اوليس ميكافيللي بالمظلوم؟ ما هو فينا من غرائز السيطرة والتحكم وتبرير الوسائل بالغايات، لماذا نلقيه على غيرنا؟ وحين استعرنا اسم ميكافيللي لممارساتنا اللااخلاقية، ألم نظلمه حين جعلنا اسمه المشجب لنقائصنا؟ ألم نكن في ذلك من الظالمين؟

دمعة الأندلس الأخيرة

الفصل الختامي الشائع لنهاية الاندلس يحمل اسم ابي عبدالله الصغير، لقد ادمنا هذا الاسم، دمرناه، جعلناه رمز الخذلان والفجيعة. ولقب «الصغير» مع الاسم يأتي ليزيد من صغاره في الاعين، كأنما المأساة كلها هنا في هذا الرجل، اننا نراه في اوهامنا خارجا من غرناطة، زمردة الاندلس الخضراء، خطى متعثرة وموكبا مهزوما، واجفانا جفت حتى من الدمع، والمأساة مجرورة وراءه، تنعق، تنعق، تنعق كألف بوم وبوم، ويصل ابو عبدالله في الدروب المكدورة الصاعدة الى منعطف في الجبال المطلة على غرناطة، دار ملكه المفقود، اضحت بعيدة تلك الزمردة هناك دون الثلج والجبل البنفسجي وردة ارجوانية في بحر الزمرد، انها الحمراء، وهناك في الازقة، صدى السنابك، واطياف الفرسان والسيوف وهناك وهناك، وطفرت الدموع من عيني ابي عبدالله فقالت له امه، عائشة:

ابك مثل النساء ملكا مضاعا   لم تحافظ عليه مثل الرجال

ذلك المنعطف حيث بكى ابو عبدالله وهو يلقي النظرة الاخيرة على غرناطة، ما زال يحمل الى اليوم اسم زفرة او تنهد العربي،

«السيسبيرو ديلمورو» من خلال هذه الصورة التي تمزج ما بين الموقف المسرحي وعصا الموعظة جرينا على ان نحكم على ابي عبدالله الصغير. فهل يحمل ابو عبدالله الصغير هذا وزر المأساة؟ هل فرط حقا في الملك المضاع؟ لم يحافظ عليه مثل الرجال فضاعت الاندلس؟ ولو حافظ عليه مثل الرجال، فهل كان انقذ الاندلس؟ ان ابا عبدالله انما هو حصيلة عدد من القضايا والظروف، اول ما يجب ان نعرف ان الرجل واباه من قبل واهله كانوا في رقعة صغيرة من الجنوب الشرقي للاندلس، انكمش اليها الحكم العربي هناك منذ اكثر من قرنين ونصف القرن، فهي الاندلس الصغرى، وبالمقابل فان اسبانيا كلها بملوكها والفرسان والقوى والمدافع كانت كلها ضده، هذه واحدة، اما الثانية فهي ان زواجين تما على الجانبين المسيحي والاسلامي، قبل سقوط غرناطة بحوالي ربع قرن او اقل، كانا السبب في هذا السقوط، فاما على الجانب المسيحي فقد تزوج فرناندو الخامس ملك الاراغون وهي ثلث اسبانيا من ايزابيلا ملكة قشتالة وهي الثلثان الباقيان، فصارت اسبانيا مملكة واحدة بعد كل ذلك التمزق القديم، وهذا الزواج جعل من القوى الاسبانية المتعددة قوة عسكرية وسياسية واحدة. بالمقابل على الطرف الاسلامي في مملكة بني نصر بني الاحمر وقع ملك غرناطة ابو الحسن علي على احدى السبايا الاسبانيات ايزابيل دوسليس، شغفته حبا فتزوجها وصار اسمها ثريا، وولدت له ثلاثة ابناء ؛ لم يكن في الامر شيء لولا ان ابا الحسن كان ذا زوجة هي ابنة عمة السلطان السابعة عائشة، وله منها اولاد كبار ينتظرون العرش: اولهم ابو عبدالله محمد، وثانيهم يوسف، وقسم التميز والغيرة واطماع الملك بيت

ابي الحسن على نفسه، فابو عبدالله ضد ابيه واخوته من الرومية. وينقم عليه ابوه وعلى اخيه يوسف فيلقي بهما في السجن في القصر.

قضية ثالثة في قصة غرناطة ومملكتها الاخيرة هي ان ابا الحسن علي الملك لم يكن دون منافس عنيد ينافسه على العرش في تلك الفترة ويحاربه ويدمر كثيرا من قواه اقسى التدمير، هذا المنافس هو اخوه ابو عبدالله المعروف بالزغل اي الشجاع. وجود هذا الرجل بهذه الكنية في الساحة السياسية العسكرية لتلك الفترة هو الذي دعا الناس الى ان يلقبوا اكبر اولاد اخيه بابي عبدالله الصغير تمييزا له عن العم ابي عبدالله الزغل.

قضية رابعة في القصة هي ان الملك ابا الحسن علي كان في مطالع ايامه فياض الطاقة، كثير الجهاد، وقد اعد جيشا فيه الاف الفرسان، وفيه المدفعية الجيدة والذخيرة الوافرة، وقد عرف الاستفادة من الخصومات بين المماليك المسيحية المتفرقة، وقد كانت دولته من قبل تدفع الجزية لملوك قشتالة فرفضها، وقال لرسول الملك القشتالي كنا ندفع لكم بعض الدنانير، ولكن دار السكة التي كانت تضرب فيها هذه النقود اصبحت الان مصنعا لرؤوس الحراب وسوف نختص بعد الان بهذه الحراب، لا بالذهب، غير ان الامور انقلبت عليه في اواخر عهده، حروبه مع اخيه ومع ابنه ومع الاسبان، دمرت جيشه وارهقت شعب غرناطة بالمغارم والضرائب الثقيلة فابغضه الشعب وجاءت بعض الفيضانات فهدمت القناطر والجسور والمنازل في بلاده، وتقدم في السن فانصرف الى الطمأنينة واللهو المتأخر مع صاحبته الرومية،

فغرناطة في اواخر الايام ليست غرناطة آل نصر الاولين.

القضية الخامسة في قصة انهيار هذا الفردوس، هي قضية او قضايا ابي عبدالله الصغير، كان في السجن وانتهز فرصة غياب ابيه في بعض الحروب فهرب من القيود بمعونة امه عائشة واعلن نفسه ملكا على غرناطة، حين عاد ابوه ووجد الثورة والتيار الشعبي الجارف وراء ابنه، لجأ الى اراضي اخيه ابي عبدالله الزغل ليموت هناك بعد قليل، ولزم سوء الحظ ابا عبدالله الصغير بعد ذلك، لم تمض سنة حتى وقع وهو يحارب القشتاليين في الاسر، صورته والتاج على رأسه والقيد في عنقه ما تزال من محفوظات دار الرماية في غرناطة «كازاديل دو لوس تيروس» ولم يطلق سراحه الا بعد اشهر، وبعد ان قبل الدخول في طاعة ملكي اسبانيا ودفع ١٢ الف دبلة من الذهب واطلاق ٤٠٠ اسير. ووضع ابنه مع عدد من ابناء الامراء رهائن لدى الملكين ورجع ابو عبدالله ليجد القوة والنفوذ قد اصبحا لعمه ابي عبدالله الكبير الزغل فتقاسم معه البلاد، لكنه مرة اخرى بعد ذلك وقع في اسر الاسبان ولم يطلق من الاسر في هذه المرة حتى وقع بالتبعية الكاملة لملكي اسبانيا وبالتخلي عن لقب ملك غرناطة وحمل لقب دوق وادي اش وعاد ليغرق من جديد في المجازر مع عمه وفي العراك الدموي الطويل حتى هزمه.

فهل هدأ ابو عبدالله الصغير؟ ما لبث الملكان الاسبانيان ان طلبا تسليم غرناطة، واجتمع ابو عبدالله مع اهل المدينة فقرروا الدفاع، الدفاع حتى الرمق الاخير. وبنى الاسبان لجيشهم مدينة قرب غرناطة وبدأوا حرب الاستنزاف وحصار الجوع وشحت

الاقوات وطاف اليأس في الاسواق واجتمع بقية الانجاد والفرسان والعلماء الى ابي عبدالله يرجونه المفاوضة مع هذين الجبارين وفاوضهما فوقع معهما معاهدة التسليم فيها ٦٧ شرطا من الضمانات التي لم يفوا بواحدة منها، ثم خرج في موكب حزين فسلم مفاتيح المدينة والقصور الباكية بينما كانت اجراس الكنائس تقرع. هل صنع ابو عبدالله بيديه هذا المصير؟ اليس بالضحية؟ اليس بواحد من كبار المظلومين؟

الحصان المظلوم

كانت السيارات تهبط بنا سفوح جبال الاوراس الجنوبية مخلفة دوامة العجاج الهارب، والطرق الملتوية بين الوديان، تسلمنا من وأد الى واد، نستقبل الشمس والصحراء. لا شيء الا الشمس والافق الصحراوي المسحور لولا ما تفاجئنا به مجموعات متناثرة مشردة هنا وهناك في الارض الحمراء من خضرة النخيل الصامد. وراءنا في احد منبسطات القمم قبر مصطفى بلعيد صاحب اول رصاصة اطلقت في الثورة التي حررت الجزائر. واعادت اليها وجهها العربي الاسلامي. وامامنا وراء الافق ننتظر ان نرى القبر الاخر، قبر اول من حمل الاسلام والعروبة الى هذه البلاد، قبر عقبة بن نافع الفهري. الذي ثوى في هذه الصحراء منذ ١٣٤٤ سنة. واطلت غابة واسعة من النخيل وقال الصحب: «انها بسكرة» وحولت وجهي الى الافق الاغبر بجنوبها الشرقي. مد يعشي العين من التراب الاجرد اشبه بالنفوس اللئيمة. اذن فها هنا سهل تهودا. ها هنا قضى عقبة. ها هنا خرجت عليه الكمائن مع كسيلة قائد البربر، وهو عائد من اول مسيرة عربية وصلت المغرب الاقصى والمحيط الاطلسي بحر الظلمات، بعد ان سرح جيشه فلم يكن معه الا عدة مئات من الجند. كل ما

ادخرته الذاكرة من اخبار تلك المعركة استيقظ. انداح صورا، دبت فيها الحياة، المسرح هنا.

وفي الوهم، قامت لعبة الضوء والصوت. تصور ما كان. تصور تكسير اغماد السيوف، تراكض الفرسان، اطباق السنابك، تناحر الرماح والسيوف، الاشلاء المتطايرة وينابيع الدم من الشرايين والشهادة، واصررت على متابعة السير الى «سيدي عقبة»، انه الان هناك في القرية المتواضعة التي تحمل هذا الاسم، على بعد نصف ساعة منا، الجامع الذي بني حول ضريحه ويحمل ثقل العصور وسذاجة التزيين البدائي القروي. اعمدة قصيرة، ودعائم من اعجاز النخيل، عليها تيجان مجهولة الاصل مغطاة بطبقة من الجص المخطط، طولانيا كالغصون، واقواس بسيطة مجردة من كل زخرف، لولا ما حفر في بعضها من التزيين الهندسي، وقبر له الله من قبر متواضع مهيب في وقت معا، رغم الغبار وفتات الزخرف وبقايا الباهت من الالوان. ورأيت للجامع بجانب منارته الطينية المربعة كالبرج قبتين اثنتين، وسألت عن الثانية لمن تكون؟ وفي خاطري انها دون شك لزميل عقبة في القيادة والشهادة ابي المهاجر دينار. المفاجأة التي لم انتظر هي انها اقيمت لحصان عقبة. حصان دفين في المسجد وتحت قبة؟ وبجانب هذا التابعي الفاتح الكبير؟ ذلك الحصان الذي خاض به عقبة بحر الظلمات، يوم وصل بحر الظلمات، خاض به الماء حتى لباته وقال: «اللهم اشهد اني قد بلغت المجهود ولولا هذا البحر لمضيت اقاتل من كفر بك حتى لا يعبد احد دونك»اذن فذلك الحصان المجاهد لا يزال ايضا يلازم صاحبه، انه اول،

ولعله اخر حصان يكرم هذا التكريم، يدفن، ويدفن في مسجد وتحت قبة!!

في طريق العودة سكنت اخبار عقبة في خاطري وانطلقت اخبار الخيل العربية. ألم نظلم هذه الخيل؟ هذا الحيوان الرشيق المملوء نبلا وخفة وسرعة وكبرا، أليس تاريخه بالتاريخ المتصل بالانسان والطويل مع الانسان؟ ألم يقم مقام المصفحة والطائرة في التاريخ البشري؟ ألم يكن «سيارة» العصور وطائراتها حتى عهد قريب؟

المغول مثلا، بنوا امبراطوريتين على ظهور الخيل، زحفوا على اوروبا كالغضب الازرق فيما بين القرن الرابع والخامس للميلاد، فوصلوا الى اعماق فرنسا ودانت لهم اوروبا، اتيلا، زعيمهم كان صرخة الرعب والدمار للامبراطورية الرومانية المهترئة، دمرها بتحركه السريع، دوخها بضرباته المفاجئة، احد المعاصرين لتلك الضربات كتب: «لو جاء هؤلاء الوحوش سيرا على الاقدام لاستراحت منهم اوروبا مئات السنين، لسحقتهم». قواتهم المحمولة كانت تجبر الجيوش الرومانية الزاحفة على الارجل ولو كانت كالجراد المنتشر على التقهقر، بعد ذلك بثمانية قرون كان جنكيز خان يغزو العالم، لانه ـ كما قال ماركو بولو ـ يتحرك فوق ربع مليون حصان.

وفي تاريخنا العربي نحن، ماذا كان مكان الخيل في هذا التاريخ؟ عرقها الانبل، الحصان العربي من صحرائنا خرج، وبها جاء القسم الالهي، ﴿والعاديات ضبحا، فالموريات قدحا، فالمغيرات صبحا، فأثرن به نقعا، فوسطن به جمعا، ان الانسان

لربه لكنود وانه على ذلك لشهيد﴾، وكانت الى هذا وذاك احدى ركائز القوة العربية الاسلامية التي امر بها القرآن الكريم ﴿واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم﴾ واذا تحدثنا عن الفارس العربي المسلم الذي حقق الفتح المبين وذرع الارض وما عليها ما بين مشرق ومغرب في عدة عقود من السنين، فان ذلك الفارس لم يكن رجلا فحسب، ولكن كان رجلا وحصانا معا. واذا كان يسابق الريح الى الميادين ويكر، ثم يلوي، ثم يعطف وينساح في السهل، او يقدح شررا على الصخور، او يزحف على البطون في الوديان، ويرقص رقصة الموت، فسيوف تهوي هنا وضربة تصعق هناك:

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا واسيافنا ليل تهاوى كواكبه

إذا كان ذلك فلأن العنان في اليد الأخرى كان.

ولان رفيقه الاخر الحصان كان يملك اللجم ويلعب الدور الحركي المتمم، ويستقبل الرماح والسيوف لتشرب بدورها من دمه. فرسان خالد وابن ابي وقاص وطارق ومسلمة وسيف الدولة وصلاح الدين، لم يكن واحدهم بروح واحدة يسير. ولكن بروحين اثنتين.

ويوم تكاثر الفرسان في اوروبا كر على ارض العرب هؤلاء الفرسان واعلنت الصليبيات. كانت الفروسية نبلا من النبل، والنبيل انما هو الذي يملك ارضا وحصانا للقتال، بل يكفي الحصان للفارس كي ينصب فارسا. وبكثرة الفرسان اكتسح الاسبان ذلك الفردوس الاندلسي الذي نعرف، قطعة قطعة، اقتطعوه بالسنابك، وبالفرسان انفسهم بعد ذلك اكتسحوا القارة الاميركية كلها ما بين شمال وجنوب، يوم الاكتشافات. الهنود

المبهوتون امامهم هناك كانت تشلهم المفاجأة. لم يكونوا يعرفون من قبل هذا المحارب الغريب الذين يرونه مجموعة من الحديد اللامع لها رأسان واربع ارجل. كانوا يظنون الفارس وفرسه مخلوقا واحدا. فتتجمد الصرخة في صدورهم ويفرون. لم يجرأوا عند الحرب، على الوقوف في وجه الاوروبي، الا حين عرفوا ان الفارس قطعتان: انسان وحيوان معا...

وانتزعني من شرودي وافكاري وصول السيارة الى بسكرة، تلفت مرة اخرى نحو سيدي عقبة لم ار هناك ضريح اول من حمل الاسلام والعروبة الى المغرب، ولكن رأيت لاول مرة ايضا إنصاف الحصان العربي المظلوم... المنكور!

بعد إنطفاء الأنوار

هل تعرف من هم المورسكيون؟ إعتدنا عند اسدال الستار على الملحمة الفردوسية التي تحمل اسم الاندلس، ان نطفىء الانوار عند اسم ابي عبدالله الصغير.

ذلك المشهد عندنا هو الفصل الاخير من الملحمة. كأنما اخر مسلم كان هناك هو هذا الملك الصغير. ما جرى بعد ذلك ندخله في ضباب الالام، نعتبره من الفواجع التي نتجاوزها بالهرب والنسيان. نعطيه عنوان «محاكم التفتيش». نعتبره من التاريخ الاسباني الاسود، من الذكريات المرة التي تقتل. مئات الالوف من المسلمين الذين بقوا بعد مأساة السقوط في الاندلس ليعيشوا المأساة الابشع والاعظم هم المورسكيون. انهم قطعة منا. الاسم الاعجمي الذي اطلق عليهم، اسهم في خفائهم. في تجهيلهم، في ضرب الاستار عليهم بعد ان ضربت عليهم تحت التنكيل والتعذيب استار اخرى، في عملية من اشنع عمليات الخنق الحضاري، فالاسم تحول من الحسن وعيسى وبدر الى خوان وخيسوس وبيدرو. واللقب صار من الغرناطي والاشبيلي والقرطبي الى ديكرينادا وسيبليانو وكوردوبيز. واللغة لم تعد لغة

القرآن. ولكن رطانة قشتالة الاسبانية. والملابس تغيرت فلا العمائم ولا الطيالس هناك، ولكن قبعات تحمل الشارات الزرقاء. المميزة، والسراويلات الضيقة.

والدين؟ في الدين خاصة، سيقوا جماعات تحت سياط العذاب لتلقي المعمودية في الكنيسة باسم الثالوث المقدس. ولكن، هل وصل لديهم رنين النواقيس الى ما وراء الملابس واللسان؟ هل دخل حنايا الصدر او عبر الصدغين؟ حكاية هذه الجماعة المؤمنة استمرت اكثر من ثلاثة قرون في اشد الظروف هولا. كجذور الشجرة العظيمة بعد الحريق ظلت تكن الجمر وتتقد بالجمر، مائة بعد مائة بعد مائة من السنين وطواحين العذاب الضارية تمزق، تفتت، تسحق، ترمي الى المحرقة، المحرقة الجاهزة دوما، من ترى عنده كلمة عربية.. او تهمس في الفاظه بعض معاني الاسلام.. في السراديب الخفية المظلمة من البيوت احتفظوا بالعروبة والاسلام، وفي اخفى خفايا الصدور ايضا. فكيف حافظت الشعلة على البقاء قرونا رغم العواصف المدمرة؟ كيف صمدت للتصفية؟ كانوا اقلية، كانت عدة المورسكيين حسب احدى وثائق العصر، ٣٦٤ الفا فقط بعد ان هاجر منهم حوالي هذا العدد. وعدة الاسبان ستة ملايين.

لجأ المورسكيون سنين طويلة الى الانفجارات الثورية. كانوا ينتظرون في كل ثورة نجدة من المغرب لم تصل ابدا، يأملون الامل الكبير في الاتراك العثمانيين الذين كانوا يومذاك احدى قوى الدنيا. لكن لم يسمعوا منهم خبرا. ٢٨ ثورة سجلت في وثائق القرن السادس عشر من ثورات المسلمين في اسبانيا، وفي

نواحي مختلفة منها. كالمصابيح المتتابعة كانت تنفجر، تقاتل اشرس القتال، وتدفع اغلى الاثمان، ثمن الثورة. كان الموت الجماعي ومصادرة الاملاك اهون ما يلقون. العبودية الابدية لاولادهم وللنساء هي التي كانت تسحقهم، والتعذيب الوحشي، الوحشي بحجة اخراج الشيطان من الجسد في اقبية الزبانية من الجند ومن قساوسة «محاكم التفتيش».

وارسل الموريسكيون الكتب والوفود الى سلطان بني وطاس في المغرب، والسلطان المملوكي في القاهرة، وسلاطين آل عثمان من محمد الفاتح حتى سليمان القانوني، بل حتى بعثوا بقائد منهم الى قائد بحرية الاتراك العثمانيين خير الدين بربروسه، يستنجد. قوة العثمانيين التي كانت تنعش المعذبين في الاندلس، كانت في الوقت نفسه تزيد الاسبان اضطهادا لهم وسحقا. خوف التحرك كانوا يضطرونهم للنزوح. بربروسه، خير الدين هذا انقذ خلال سبع محاولات وعلى ٣٦ بارجة ٧٠ الف موريسكي.

مقابل هذا الخط السياسي الثوري كان الموريسكيون يحتفظون بحياتهم الدينية والثقافية كاملة، وراء الاستار الكثيبة، بل ويكتبون المؤلفات وينظمون الشعر والاغاني ويصومون ويذهب بعضهم الى الحج. في القرن الماضي فقط كشفت الابحاث المتصلة عن هذا الجانب الثقافي للموريسكيين. الكتب المصادرة من خزائنهم، والتي لا تزال تظهر يوما بعد يوم حتى في اميركا، كانت مكتوبة باللغة الاسبانية ولكن باحرف عربية، لئلا تفتضح اسرارها. وماذا في تلك الاسرار؟ ماذا فيها من اسرار؟ انها كتب دينية وفقهية وقصصية اسلامية. من مؤلفي الكتب الدينية لهم

ذلك الذي يسميه الكتاب عيسى بن جابر. فقيه جامع شقوبية هو صاحب الكتاب الشقوبي اكثر الكتب الدينية انتشارا بينهم. في تلك الايام. تحت العنوان نقرأ بالحروف العربية: بريفرياريو سني «اي مختصر في السنة» مذكرة بأهم واجبات شريعتنا المقدسة وسنتنا. وفيه كيفية الصلاة والصوم والوضوء والدعاء. وثمة مؤلف اخر «التفسيرة» كتبه مؤلف مجهول يستتر تحت اسم «رفيق اريبالو» يتحدث عن اجتماع عدد من المسلمين في سرقوسطة وتداولهم آلامهم وماذا يفعلون ونقرأ فيه اسم البدرائي اي ابي الدرداء وقتدانا اي قتادة. وكعب الاهبار اي كعب الاحبار. وقد جمع المسلمون لهذا الرفيق ما ذهب به الى الحج.

وكتاب ثالث اسمه «كتاب في العقيدة» ما ينبغي على المسلم ان يعرفه وفيه اشياء اخرى من القصص، منها قصة توبة البائس. وثمة كتاب «التفريع في الفقه المالكي» لابن جلاب البصري، مكتوب بالحروف اللاتينية، وبجانب هذا فهناك الكثير من القصص الدينية وغيرها مما كتبوه بالحرف العربي واللغة القشتالية.

وكان للموسكيين ايضا شعرهم بهذه اللغة عثر على الكثير منه وفيه مثلا قصيدة في مديح الرسول عنوانها «المدحة في مديح النبي». واللازمة التي تتردد فيها كل اربعة ابيات بالعربية «يا حبيبي يا محمد والصلاة على محمد». وترجمة المقطع الاول منها:

«يا ربنا صلي عليه، واشملنا معه بحبك، واحشرنا في جماعته في رحاب محمد يا حبيبي يا محمد. والصلاة على محمد». ومن شعرائهم في القرن السادس عشر ابراهيم البلفادي الذي كتب رسالة شعرية في الدفاع عن العقيدة الاسلامية على شكل

مخمسات، وفي الشرح الذي عثر عليه منها يقول العنوان «ان صاحبها كان اعمى البصر منير القلب والذهن». كما نعرف الشاعر محمد رمضان من اهل روطة الذي نظم في شعر اسباني نسب الرسول وامورا دينية اخرى. وانما كانوا يستخدمون الشعر للحفظ السهل. وثمة رباعيات وخماسيات اخرى كثيرة، وكان للموركسيين بجانب شعرهم زجلهم وشعرهم المغنى الباكي، اغنية من اغنياتهم تقول: «يا ربي يا من ترى ما يقاسيه عبادك، فهم اموات في الحياة، وفي الاجساد، جحيم تلظى، بسبب خطايا ابائهم الذين كانوا يعيشون دون رادع. يا رب ارفع عنا سيف غضبك الملتهب».

اما الاغنية الزجلية الاشهر فتقول: «على الرغم من الاسر التعيس، الذي اراده الله لنا بحكمته الخفية العادلة، فاننا نبكي عز دولة الاسلام، وما قدر عليها من شقاء وليحيى دين الله».

حكاية الموركسيين ملحمة اندلسية اخرى، ولكنها الملحمة المأساوية لا الضاحكة، هي حكاية الراكعين على الجمر، لا الراقصات بالموشحات على مدارج الحمراء. هذه القطعة التي هي منا، من قلوبنا ومن ذواتنا والتي تركناها تذوب. تذوب بالغربة، اليست مظلومة ظلمين؟ ظلم الاهمال الاول وظلم ان لا يعرف نضالها احد؟ ان لا يتذكر صمودها احد؟

البطل ... المطارد

«الشعب الذي ينسى من أذله، شعب لا يستحق لقمة العيش. والشعب الذي لا يعرف الكراهية العظمى لا يستحق المجد الاعظم ولا يستحق ان يعيش». ليست هذه الكلمات من عندي، لقد اطلقها قبل ٢٢ قرنا رجل كان رعب البر والبحر في عصره، عاصفة الغضب والحقد، وكانت هذه الكلمات منهاج حياته، منهاج حياته حتى الموت. وقد ظلم من اجلها حتى الموت، وظلموه من اجلها بعد الموت ايضا، فهو في التاريخ الذي كتب له الوحش والسفاح والمجنون ومصاص الدماء وهو الحقد الاسود واللعنة وشبح الدمار الرهيب. الرجل هو هنيبال، وذنبه الاعظم انه كان يحب بلاده قرطاجة، يحبها لدرجة الشرب من دم اعدائها وعدوهم الرومان، ولم يكن هؤلاء اقل وحشية ولا سفكا وعدوانا ولا حقدا اسود.

أحد زعمائهم «كاتو» جعل اللازمة التي ينهي بها كل خطبة من خطبه ايا كانت الخطبة: «يجب ان تدمر قرطاجة»، ولكن الرومان هم الذين ربحوا الحروب في النهاية وخسرتها قرطاجة. ولذلك كان قياصرة روما السفاحون ابطالا ولهم اقواس النصر واكاليل

الغار، وكان هنيبال الوحش المجنون الذي يطارده الناس وتطارده روما الى اقصى الارض وحتى الانتحار. ويطارده الاتهام عبر التاريخ الى اليوم بأنه قتل نصف مليون روماني. فما الحكاية من أولها؟

روما قبل الميلاد بثلاثة قرون كانت تتوسع على كل ايطاليا ومقابلها على البر الافريقي، تونس اليوم، كانت قرطاجة الفنيقية، بلدا ذا تجارات واسعة، تملأ البحر أشرعة ومستوطنات على أطراف البحر المتوسط تملؤه فاعلية ونشاطا. وطمعت روما في تجارة قرطاجة وثرواتها ولم تجد وسيلة لتحقيق اطماعها سوى الحرب. الحروب الاولى دامت ٢٣ سنة دمرت مستوطنات قرطاجة، انهكت قواها، وصل الدمار حتى المزارع المحيطة بقرطاجة وانتهت الكوارث المتبادلة بتنازلها عن معظم اراضيها لروما وفقدان معظم الاسطول ودفع اتاوة ذهبية ضخمة لروما على مدى ١٠ سنوات. واستردت قرطاجة انفاسها ونشاطها التجاري بالتوسع بعيدا عن روما في اسبانيا. مناجم الفضة والحديد والنحاس التي انفتحت عليها هناك اعادت اليها الغنى، ولكن الناس ظلوا بين الألم ومذلات الهزيمة، وبين الخوف من الحرب وتجدد النزاع فريقين. الحزب العسكري بزعامة أسرة بارك ورجالها هملكرت وصهره اسد روبال يجمع اليه أنصار الثأر من روما والحكومة التي يسيطر عليها تجار محافظون، ينظرون بعين الغيرة والخشية الى نفوذ هؤلاء ويريدون الخلاص منهم. ولكن الثروات المتدفقة من اسبانيا بجهود تلك الاسرة العسكرية كانت تملأ افواههم بالفضة، فلا يجدون الكلام. العسكريون كانوا

يريدون ان يعيدوا لقرطاجة فخرها، فخرها الذي كانت تفخره في الماضي من انه لا يستطيع روماني ان يغسل يديه في البحر المتوسط دون اذن مكتوب منها، وتلك القصة نفسها عادت تسيل لعاب روما وتدفعها الى التدخل مرة اخرى لخنق النشاط القرطاجي المملوء ثروات.

وحين قتل في المعارك باسبانيا القائد اسد روبال (الاسد الرئبال) الملقب بالبرق، لم يجد القرطاجيون افضل من شقيق زوجته هنيبال ابنها ميلقارت الملقب بالرعد. كان في الخامسة والعشرين من العمر ولكنه كان يفخر بأمرين: انه رضع بغض روما قاهرة بلاده مع حليب امه وانه لم ينم تحت سقف ابدا.

ابوه اخذ عليه عهد الآلهة وعمره تسع سنوات، ان يحارب الرومان الى الابد في كل مكان. وحياته كانت ابدا في القلاع وخيام الجند. العمل العسكري الذي قام به هنيبال بعد ذلك كان من معجزات الحروب، فتح في اسبانيا مدينة ادعت روما انها تحت حمايتها وطلبت من قرطاجة تسليمها هنيبال ومساعديه والا آذنتها بالحرب. واستطاع الحزب العسكري ان ينال من حكام قرطاجة رفض المطلب الروماني. اما هنيبال فأجاب عن ذلك بمسيرة حربية لم يسبقه اليها أحد في التاريخ: حشد ٤٠ الفا من المشاة والفرسان من كل جنس ولون، وفي مقدمته كان ٣٠ فيلا. الافيال كانت بدعته الحربية يومذاك، وسار من جنوب اسبانيا بالبر نحو روما، سرعته في الحركة وفي اجتياز جبال بيرانيه بين فرنسا واسبانيا ثم عبور جنوب بلاد الغال فرنسا اذهلت الرومان. على طول الطريق كان يحارب. كان يكفيه ان يطلق دباباته من

الفيلة لتنهزم الشعوب امامه. عند نهر الرون احتاج الى جسر للعبور فجعله من جثث الاعداء وجاءت بعد ذلك العقبة الكبرى، جبال الألب ومن له باجتياز جبال الالب؟ وكيف تصعدها الفيلة؟ وسجل هنيبال في التاريخ انه اول من عبر بالفيلة، وبهذا الجيش اللجب وبالوسائل البدائية.

في جبال الألب من فرنسا الى سوليبو في ايطاليا. هاجمته العواصف الثلجية في الجبال، اكلت الصخور الزرق من جثث اصحابه، طمرتهم الانهيارات، ذبحتهم الوديان لا قرار لها، والضباب لا يكاد ينكشف. صحيح انه بقي في ٢٠ الف محارب وستة الاف فارس فقط وعدة افيال، ولكنه اجتاز جبال الالب وانحدر نحو روما من الشمال. وبهذه القوة فقط استطاع ان يسحق الرومان جيشا بعد جيش، صار فزع العصر. نساء الرومان صرن يهددن اولادهن بهنيبال، اما هو فكان وحيدا مع جنده ويعرف انه وحيد في هذه البلاد العدوة، فإما النصر وفإما الموت، واستخدم جميع حيل الحرب الجاسوسية والمفاجأة والتحرك السريع والارهاب الوحشي وجر العدو الى مكان وزمان المعركة والبيات. في احدى المرات أتى بمائة ثور فلف القماش على قرونها واشعل فيها النار واطلقها في الليل في حقول القمح التي يختبىء فيها الرومان واحترقت الحقول. اما جنون الابقار وهي محترقة القرون فكان كافيا لهزيمة العدو. ولما لم يستطع اخذ روما بسبب قلة الامدادات التي تصله من بلاده راح يهاجم البلاد التابعة لها في انحاء ايطاليا، ١٧ سنة ظل يحارب الرومان على ارضهم، وهم يحاولون نقل الحرب الى ارضه في اسبانيا، وفي قرطاجة نفسها.

سلسلة المعارك التي قادها كانت سلسلة ملاحم من البطولة والمجد الحربي، لم يخسر معركة واحدة ومع ذلك فقد خسر الحرب. حين اشرف اخيرا على روما، جاءه نبأ مفجع. اتفق التجار والحكومة في قرطاجة ضده، خضعوا للضغط الروماني، وخافوا طول الحرب والنفقات، لاسيما بعد ان أخذت روما اسبانيا وانقطع نبع الفضة والنحاس من هناك فاتهموا هنيبال بالجنون، وبأنه ضلل الشعب وانه بدد الاموال، مع انهم لم يدفعوا له شيئا. وابلغوه القرار بأن يعود. وغادر هنيبال ايطاليا مهزوما وهو الذي لم يقهر عليها مرة واحدة. حاول حين وصل بلده ان يجمع قواها لمواجهة حملة الرومان التي تطالب برأسه وباخضاع بلده. وخان المرتزقة جيش قرطاجة فانهزم. وسلمت للرومان جميع سفنها الحربية وكل الفيلة مع اتاوة سنوية تمتد ٥٠ سنة ورهائن من أهلها لئلا تعاود الحرب أبدا. ولما حاول هنيبال قيادة بلده لبنائها من جديد طلبت روما رأسه. وهرب الرجل الى سوريا آواه ملكها في احدى القلاع ولكن روما طلبته منه فهرب متنقلا حتى لجأ اخيرا الى ملك ارمينيا في ارمينيا ولاحقته روما لدى ذلك الملك فلم يجد هنيبال مخرجا وكان شيخا في الرابعة والستين. لم يجد مخرجا سوى الخاتم الذي في يده وكان يحوي من السم ما يكفي للخلاص. يقولون انه كتب على الحائط آنذاك: الى الرومان اعدائنا حاربتكم ٤٠ عاما واليوم يموت آخر جندي في رتل الكراهية الابدية لكم.

ماذا كان جزاء قرطاجة التي تخلت عن رجلها..؟ كان جزاؤها ان تحرث ارضها حرثا. بعد ٥٠ سنة عادت روما فطوقتها ثم

دمرتها واحرقتها وبالمحاريث حرثت ارضها واصدر مجلس الشيوخ الروماني قرارا بلعن هذه الارض ومن يبني عليها حجرا.

ترى الم يكن هنيبال المظلوم ينطق بالحكمة حين قال: الشعب الذي ينسى من أذله شعب لا يستحق لقمة العيش والشعب الذي لا يعرف الكراهية العظمى لا يستحق المجد الاعظم ولا يستحق ان يعيش؟

زعموه الحاكم المعتوه

لو سألتك ما الذي تعرفه عن قره قوش لاجبتني بانه حاكم احمق، واكملت الصورة، بنادرة او اثنتين مما تحفظ واحفظ. تقول: يروون ان دائنا جاء بمدينة اليه يطلب الزامه بدفع الدين، وقال المدين كلما جمعت المبلغ وجئت ادفعه اليه لم اجده، ويتبدد المال مني فلا استطيع السداد، فقال قره قوش: اذن، احبسوا الدائن حتى اذا فتش عنه المدين وجده ودفع الدين.

واقول، ويروون، انه حكم باعدام قاتل ولكن الجلادين عادوا يقولون: ان الرجل قصير والمشنقة عالية فماذا يصنعون؟ فقال قره قوش: فتشوا عن رجل طويل واشنقوه.

ويقول غيري وغيره يروون ويروون. ان باستطاعتك ان تجمع من هذه الطرائف سلسلة لو شئت، لكنك لن تجد من ملامحه التاريخية شيئا، الرجل اضحى شخصية بين الحقيقة والخيال. ضاعت كل معالمها في الضباب، وبقيت منها تلك الهالة من حماقات التندر، قره قوش لدي ولديك انموذج الحاكم الاحمق، صورته تتنزل كلما مرت قضية لا منطقية بين الناس. وكما يعرف المجرمون بسيماهم كذلك يعرف احمق الرأي بقره قوشيته.

صارت القره قوشية طريقة في الاحكام نستنجد بها عند كل مفارقة سخيفة، مذهبا في الحكم بينه وبين المنطق حرب البسوس. والاسم قره قوش تركي غريب ويعني «الطائر الاسود».
فمن هو صاحبه الحقيقي؟ ومتى كان؟ واين كان؟ وما حقيقته؟

ويحك التاريخ رأسه والجبين يتذكر من هو قره قوش؟ ويقلب دفاتره القديمة ويستعرض الاسماء. من ذلك السلطان الذي استحق كل تلك السمعة في الحماقة وسوء الحكم والغباء؟ ثمة في التاريخ اربعة معروفون حملوا هذا الاسم، والاربعة كانوا في عصر واحد هو النصف الثاني من القرن السادس للهجرة، عصر صلاح الدين الايوبي، قبل ثمانية قرون: اولهم قره قوش احد قواد طوغان شاه ابن المؤيد صاحب نيسابور في ايران، والثاني قره قوش احد قواد عبد الملك بن المقدم ونائبه في افاميا من بلاد الشام. والثالث شرف الدين قره قوش التقوي المظفري مملوك تقي الدين عمر ابن اخ صلاح الدين. وقد قام بمغامرات حربية كثيرة في طرابلس الغرب وافريقيا وجمع الثروات وكاد يؤسس دولة هناك، وقد حاولها فعلا لولا ان هزم امام ابي يعقوب سلطان الموحدين. واما الرابع فهو بهاء الدين ابو سعيد قره قوش ابن عبدالله الاسدي وليس من بني اسد ولكنه مملوك طواشي لاسد الدين شيركوه عم صلاح الدين الايوبي، ثم لصلاح الدين من بعده. وكان احد قواد جيش صلاح الدين. بهاء الدين هذا هو صاحبنا الذي نذكر ونتندر ونركض وراءه باجراس الحماقة عبر العصور. فماذا عن الرجل؟

الغريب ان المفارقة واضحة وجارحة معا ما بين حقيقته

التاريخية وبين صورته الشعبية الراكضة، وهو في التاريخ بطل كبير من ابطال الاسلام واما في الخيال الشعبي، فحاكم مضحك يلبس طرطورا باجراس. وسقط البطل مع الايام، غامت ملامحه، امحى تماما. وبقي الرجل اضحوكة. سحقه التاريخ سحقا ثم صاغ منه شخصا اخر كان هو الابقى والاخلد.. وكذلك ظلم التاريخ.

قره قوش القائد رافق صلاح الدين في جميع مراحل حياته وجهاده، ورافق ابناءه بعد مماته، واذا لم يكن صلاح الدين فردا صنع المعجزة ولكنه مجموع جهد عشرات القواد صنعوا المعجزة معه، فان قره قوش واحد من هؤلاء. كبيرا من هؤلاء كان، من القلة الملتصقة بصلاح الدين كان. لم يكن صلاح الدين اكثر من قائد عادي في جيش عمه بمصر حين كان قره قوش صديقه وعونه. ويوم اختير صلاح الدين للوزارة ثم الغى الخلافة الفاطمية، لم يجد احزم ولا اكثر امانة منه ليكون زمام القصور الفاطمية وليحفظ ما فيها من الثروات، وما ادراك ما بها من الثروات! مكتبة القصر كان فيها ١٢٠ الف مجلدة ملكية. من جواهر القصر قضيب زمرد طوله شبر وكسر في ابهام. وجبل من الياقوت واكوام من الحجارة الكريمة، ومن سلاح القصر عشرة الاف سيف محلاة بالجوهر، ومن ادوات القصر من الذهب الخالص والفضة النقية ما لا يعد عدا. الستور والفرش المنسوجة بالذهب والاف الاثواب، فكان لا يجري في القصر صغير ولا كبير الا بامر قره قوش وحكمه. وترك صلاح الدين مصر الى الجهاد في الشام فكان قره قوش نائبه في الحكم في مصر حوالي ١٥ سنة.

وامره صلاح الدين ان يقوم باعمالها الدفاعية، فبنى قره قوش سور القاهرة الذي ما تزال بقاياه وبقايا ابوابه في شرقي القاهرة وغربها وبين قلعة الجبل التي ندعوها اليوم في مصر بقلعة محمد علي واسمه ما يزال منقوشا عليها. وبنى بالمكس رباطا للمرابطين في الابراج، وزاد قره قوش على ذلك فاقام عددا من الابنية الدينية منها: خان سبيل على باب الفتوح في باب القاهرة، ووقف الاوقاف الكثيرة على العديد من الجهات، واستخدم في الابنية كلها اسرى الفرنج وكانوا لديه بالاعداد الوفيرة جدا، وقد شاهدهم الرحالة ابن جبير الاندلسي وهم يعملون وكتب عنهم.

وحين احتل صلاح الدين عكا واراد حمايتها من الردة الصليبية كان قره قوش احد القائدين اللذين عهد اليهما بالدفاع عنها، وكان زميله هو ابن المشطوب. وحاصر الصليبيون المدينة ثلاث سنوات والقائدان يعانيان مأساة الدفاع اليائس، وحين سقطت عكا واسر قره قوش افتداه صلاح الدين بستين الف دينار، وفرح اشد الفرح بعودته واعاده لحكم مصر، ومات صلاح الدين فسلم قره قوش هذا البلد الى ولده الملك العزيز عثمان فلما مات عثمان بعد سنتين لم يجد الامراء من يكون وصيا واتابكا لابن الملك العزيز الطفل سوى قره قوش المشرف على تربيته. فضلوه على عمي الملك الطفل وهما حيان يسعيان.

وبعد، فماذا يقول المؤرخون المعاصرون عن قره قوش نفسه؟ يقول الاول انه كان رجلا مسعودا وصاحب همة عالية، حسن المقاصد، جميل النية، وكان له حقوق كثيرة على السلطان وعلى الاسلام والمسلمين، وكان معتمدا في احوال المملكة واعتماد

صلاح الدين عليه ولولا وثوقه بمعرفته وكفايته ما فوضها اليه.

ويقول الثاني كان من اعيان الاسدية، جند شيركوه كلهم يرجعون اليه وكان يلقب بالامير الكبير.

ويقول الثالث كانت له رغبة في الخير واثار حسنة ولولا وثوق صلاح الدين بعقله لما سلم اليه مصر وعكا وغيرهما، وقد وضعوا عليه خرافات لا تصح...

وصلنا اذن الى مربط الفرس، ما قصة هذا الخرق في الحكم ينسب اليه حتى يغرق كل بطولاته؟ القصة هي ان الرجل كان حازما صارما عنيد الرأي، كان عسكريا لا يتراجع عن قرار، والناس في مصر، منذ كانوا، مولعون بالنكتة، وقد تندروا بعناده ضخموه حتى التشويه. اعطوه الصورة الكاريكاتورية، وقد اصطدم قره قوش بالرجل الذي يشرف على شؤون المال بمصر واسمه الاسعد بن مماتي، واكرهه كما اكره جماعته في بناء سور القاهرة على جلب الحجارة الغرانيتية لهذا السور من اسوان لا من حجارة المقطم الحوارية الرخوة، وضاق ابن مماتي ذرعا بقسوة الرجل وعناده فجمع النكات الشائعة في كتيب سماه «الفاشوش في احكام قره قوش». ومات الكتاب وصاحبه حتى آل الامر بعد بضع مئات من السنين الى حكام من المماليك، قره قوشيين بالفعل، فاحيا الامام السيوطي الكتاب ونشره فكان الاسم لقرقوش والفعل للمماليك!

وانفصل عن البطل الذي كان، حاكم اخر جرى على الاجيال يعتل على ظهره كل الحماقات. ارأيت كيف نظلم دون ان ندري قره قوش ارأيت كيف ندمر بايدينا هذا البطل الاسلامي الكبير؟

الشعب الضائع

المظلوم الذي سأتحدث عنه هذه المرة ليس انسانا فردا ولكنه شعب انساني كامل. هل تذكرون الغجر؟ الغجرية ذات التنورة المزركشة، والعينين تطل منهما في اعماق الف بئر، واصداف الودع تنتثر لتكشف دبيب الغيب ودخائل القلوب.

هذه الشخصية نصطدم بها في كثير من اعمال الادب الكلاسيكية.

تظهر عند كل ضربة قدر كأنها نذير المأساة المقتربة. ولكنها ليست مجرد صورة ادبية، انها صورة شعبية مألوفة في كل مكان، الست تذكر خيام النور؟ الست تذكر البصارة البراجة؟ ومع ذلك فهل سألت نفسك من هي هذه البصارة البراجة؟ من هم هؤلاء الغجر ومن اين هذا الشعب الضائع في مدارج الارض كأنما امسكت به يد شيطان رجيم فنثرته في الارض نثرا، العائش على هامش الناس في اطراف المدن والقرى كأنما هو بعض اللبلاب والعليق الوحشي، هذا الشعب المظلوم حتى العظم فلا ارض ولا احترام ولا مكان في المجتمع الانساني، ما هو يا ترى؟ هل سألت؟ بلى، نحن نسأله في البخت والحظ كأنه اجير للقدر.

فصحائف الغيب بين اصابعه وعينيه، وتهز الخصور على انغام طمبوره، فهو اللهو الرخيص على الارصفة ولكننا لا نسأل من اين ينبع هؤلاء حين يظهرون ولا ايان يذهبون حين يغيبون؟ وفيم نسأل انهم نور. ولهم كذلك الاسماء الاخرى فهم: الجبسي في انكلترا، والبوهيميون والتسيكان في فرنسا، والغجر والنور عندنا، والسيابجة والزط في تاريخنا، وهم الرومان الرحل في البلقان، والتتار في السويد والهيثينز في المانيا والخيتانو في اسبانيا، كل امة اعطتهم اسما حتى ضاعت الهوية والاصل في دوامة الاسماء، وتسأل هذا الشعب المنكود عن اصله فيزعم انه من مصر الصغرى «LITTLE EGYPT» ومن هنا جاء اسمه جبسي، ولكن من اين جاءته الاسماء الاخرى؟ واين هي مصر الصغرى هذه؟ ويزعمون ان لهم ملوكا وملكات، وثمة من يدعي انه ملك الغجر، وما هم الا زعماء القبائل الغجرية هنا او هناك.

وتسأل هذا الشعب عن هذا التفرق في مسالك الارض، ما سببه؟ لماذا كان وطنهم دائما الخيمة والعربة التقليدية وظهور الحمير؟ فيبرز بعضهم الوثائق بان البابا فرض عليهم عقوبة ذاتية للتكفير عن خطاياهم، ان يهيموا على وجوههم في الارض سبع سنوات. ويبدو انها لم تنته تلك السنوات السبع بعد.

وان حكم التكفير سرى على البروتستانت منهم، والمسلمين والبوذيين فهم على دين البلاد التي يعيشون فيها، وعلى عقائدهم الخاصة بها ايضا، فهل أرجع بك وبهم الى شيء من التاريخ؟ قصة هذا الشعب الذي خرج ذات يوم من بلاده ولم يعد تبدأ قبل الاسلام ببعض القرون. سهول الجنوب الغربي من حوض

السند هي مواطنهم الاصلية. «الفردوسي في ملحمة الشاه نامه» يعطي خروجهم الشكل الاسطوري يقول: ان بهرام جور ملك فارس في القرن الخامس الميلادي سأل ملك الهند ان يرسل اليه عشرة الاف من اللوريين البارعين في عزف العود فأرسلهم اليه. ويظهر ان الفقر والقحط والجوع هي التي اخرجتهم لا عزف العود، فانساحوا في جنوبي ايران وحتى جنوب العراق وفي الخليج. حين كان الفتح الاسلامي كانوا هناك، ثم كان لهم دورهم في واقعة الجمل وبعد ذلك بمائتي سنة ايام المأمون ثاروا.

بلى، ثاروا، كانوا قد اجتمعوا وتكاثروا في البطائح في تلك الاهوار المستنقعية بين الخوص والقصب، فقطعوا الطرق واعملوا السيف بالناس ٢٠ سنة. حتى دخل الجيش عليهم الاهوار، كانوا ٢٧ الفاً من النساء والذراري. لم يقتلوا، سيقوا في المراكب وعليهم عددهم الحربية والابواق حتى بغداد.

وجلس الخليفة المعتصم ينظر ارتالهم في دجلة وابواقهم تصدح، ثم سيق القسم الاعظم منهم الى منطقة الحدود مع الروم في الاناضول. والروم هم الذين اغاروا عليهم بعد ٢٠ سنة اخرى ونقلوهم الى وسط اوروبا، ومن هناك تفرقوا بدوا في المسالك، يقدرون عدتهم اليوم في العالم بين سبعة وثمانية ملايين، نصفهم في اوروبا الغربية والشرقية، والنصف الاخر منثور في مدغشقر الى السودان ومصر وشمال افريقيا، وبعضهم اليوم في الولايات المتحدة وكندا والبرازيل ونيوزيلندا واستراليا عدا ما في الجنوب الشرقي من اسيا وفي الهند بالطبع. ولهذا الشعب لغته، ولغته التي يتفاهم بها كل الغجر، انها تراثهم.

الموحد ولكنهم يتحدثون ايضا كاليهود بكل لغات الارض التي يعيشون فيها، ولقد جرت محاولات عديدة لتنظيم هذا الشعب العاثر الحظ. منذ قرنين الى اليوم وهم يحاولون. غجري بولوني اسمه «كويكز» اقام سلالة مالكة في بولونيا سنة ١٩٣٠، واخر اسمه «كاسكو» اقام رابطة في نيويورك سماها «الاردية الغجرية الحمراء»، ولكن تنظيمهم الحقيقي القائم هو انهم قبائل وقبائل تقوم على اساس الام لا الاب، ويشعرون حتى الاعماق بهويتهم الذاتية وتراثهم الخاص المميز.

وماذا بعد ايضا؟ انهم لا يهتمون بالمال، يقولون «الرجال يصنعون المال ولكن المال لا يصنع الرجال». اللامبالاة ثروتهم الكبرى ولا يأبهون بعد لقيمة او لتقاليد الا التقاليد الغجرية، انها مقدسة. واما الفردوس عندهم فحيث يجدون الطعام الوافر والدخان، او الدخان والطعام الوافر. فالدخان هو الاول. الغجري الجائع إن خيرته بين الطعام والدخان فضل الدخان، غليونه المسائي قمة السعادة، اما الكحول فهو ضعفهم الاكبر.

وليس الغجر دون عمل، ليسوا كالتماسيح التي تتثاءب في الشمس. انهم متخصصون في عدد من الاعمال. في صناعة النحاس، والمجوهرات، في تربية الخيول، في تدريب الدببة والكلاب والقردة والماعز ببهلوانيات السيرك، لكن شهرتهم الاساسية انما هي في امرين: العرافة والموسيقى، انهم العرافون التقليديون، اسرار الحظوظ في ايديهم وانهم مادة الفرق الموسيقية الشعبية في الغرب، وقد نبغ منهم عازفون عالميون امثال «بويكو» عازف الكمان و«شيفرا» عازف البيان «وربنهارد» عازف القيثار.

هذا شيء من التاريخ، جانب منه فقط هو الجانب الهادىء الابيض، اما الجانب الاسود فلم اذكره بعد. ان هذا الشعب الذي يعيش دون سقف يعيش ايضا تحت رحمة الله. تاريخ الغجر ملحمة طويلة من الاضطهاد والسحق المتصل. كانـوا الاشلاء لكـل من اراد ان يجرب سيفـه، من مضيق مسينـا الى بحـر البلطيق، ومن روسيا الى انكلترا واسبانيا، لم يعرفوا في اوروبا سوى الاستعباد والسيـاط والشنق وحطب المحـارق لمجرد انهم غجر.

ذات يوم في القرن الثامن عشر كانت طريدة حملة من حملات الصيد في الغابـات على نهر الـراين غجريـة تحمل طفـلا على صدرها. في النصف الاول من ذلك القرن صدر ٦٨ مرسوما من امبراطور النمسا ضد الغجر. في انكلترا صدر قانون بالموت على من يصادفهم ودون حق بالمحاكمة، لأن قيامهم دون جدران، وايديهم دون خناجر، جعلهم نعجة الذبح. التهمة الكبرى التي كانت تكفي لقتلهم في نظر الكنيسة والناس هي ممارسة «السحـر الاسود»، هذه الكلمة المرعبة متى القيت اذن فالجموع ثورة مجنونة لا يطفئها الا دم الغجري الاحمر، حتى في هذا القرن سحقوا. النازية ساقتهم كما ساقت اليهود الى افران الغاز ابادت منهم عشر عددهم، وقامت الدنيا ولم تقعد لاضطهاد اليهود...

اما الغجر؟! فلم يسمع بأنينهم أحدا! «سيرفـانتس» كاتب اسبانيا الاكبر كتب على لسان احدهم منذ ثلاثة قرون يقول: «تعلمنا الالم منذ زمن طويل، تعلمناه فلم نعد نحس الالم. اشنع العذاب لم يعد يجعلنا نرتجف، ولا نهاب اي نوع من الموت، هو

والحياة سواء، لهذا نغني والاصفاد تذبحنا وحتى في اعمق حفر السجون».

هذا الشعب السائر على دروب الحياة بفلسفة لا مبالية وطمبور على الكتف وعين تخرق الغيب الا يستحق ان نألم له؟ اليس بالشعب المظلوم؟ ولا تسألني هل هم الشعب الوحيد المظلوم؟ فليس عندي من جواب سوى الصمت، الصمت العميق!!

أبو يحيى المظلوم

اذا قدمت بالبحر على «مايورقا» الجزيرة الزمردية النائمة في قلب البحر المتوسط الغربي، ووصلت عاصمتها الجنة بالما، فان أول ما يواجهك على الشاطىء من الابنية الاثرية هو قصر هذا الرجل، قصر أبي يحيى التنمللي، كالقلعة الشامخة ينتصب، تطير وتحط عليه الحمائم البيضاء، انهم يسمونه «المدينة». وفي القصر في الداخل تجد في احدى القاعات صورة أبي يحيى، كما تخيله الرسام، يقدم وهو راكع مفاتيح المدينة للملك خايمه الفاتح. عمر هذا المشهد اليوم ٧٥٨ سنة، ويسجل نهاية ٥٠٠ سنة من الحكم الاسلامي لتلك الجزيرة الزمردة، غابات الزيتون المعمرة هناك عاصرت هذا المشهد، اشجارها التي أضحت من العقد والقدم والتعرج أشبه بمعرض هائل للنحت السريالي، لا تزال صامدة تحتفظ باخيلة الفرسان العرب الذين زرعوها، والذين كانوا يخترقون ظلالها كالسهام الملتهبة.

في مطالع القرن السابع للهجرة، الثالث عشر للميلاد، كانت مايورقا مع جزر الباليار الاخرى مينورقة ويابسة وغيرها ضمن سلطان الموحدين الذين كان لهم حكم الاندلس والمغرب أيضا.

وكان الوالي على تلك الجزر منذ سنة ٦٠٥ أو ٦٠٦ هو أبو يحيى محمد بن أبي عمران علي بن موسى التنمللي. ٢٠ سنة ونيفاً استمرت ولايته باسم الموحدين. كان سلطان البحر وتجارته ما بين السواحل الافريقية والاندلسية والفرنجية والايطالية هي التجارة الاولى. على أن قوة الموحدين اضطربت الاضطراب الكبير في آخر الفترة في الاندلس بسوء الادارة. دمرهم التفرق وفيها كانوا يتمزقون وتقوم ضدهم دعوة الامير الثائر محمد بن هود، وينقسم بشأن ذلك الناس، كانت القوى الاسبانية تتنمرد، تشحذ السكاكين، وتتلمظ بالغنائم الممكنة.

هل كان أبو يحيى في جزره البحرية بعيدا عن هذا الصخب والانقسام وعن الاطماع؟ ما كان الا جزءا من هذا الصراع نفسه، في الداخل بدأ يشعر ان الارض التي تميد تحت أقدام أصحابه الموحدين تميد تحت قدميه، وفي الخارج كانت الانياب المتحفزة لاقتسام بلادهم الاندلسية تتحفز بدورها لاختطاف جزره، بين نارين أحلاهما مر. واذا كان المشكل الداخلي هين الأمر، يكفي فيه تشديد القبضة، فالبحر المفتوح من حوله لكل القوى العدوة هو الخطر الحقيقي، هو المدى المرعب. لا كافل لموجه والهدير. على صفحة هذا البحر كانت تسرح الاشرعة من قراصنة الاراغون، أقرب الاعداء اليه على البر الاسباني، ومن قراصنة الفرنجة والبيازنه والجنويين، وأهل البرانس. واستضعفوا الرجل فأضحى الاسطول المايورقي عرضة للهجمات، قطعوا عليه موارد الخشب من جزره، ثم لج العدوان فوصل القراصنة الاراغون لدرجة السطو على موانىء تلك الجزر. وأراد الرجل ان

يظهر قوته البحرية، يرهب بها اعداء الله، فما ان علم ذات مرة بغارة بعض هؤلاء على جزيرته المسماة «يابسه» حتى بعث ابنه فسحقهم، وصادر سفنهم هناك على المرفأ.

وعلى طريقة الذئب والحمل في الحكاية المعروفة ضج أهل الاراغون وبكوا الاموال الضائعة، ووقف ملكهم الشاب خايمه الاول يعدهم بالانتقام في حملة احتلال أسهموا فيها جميعا. التجار والامراء، الاقطاعيون ورجال الكنيسة وحتى الفلاحون تقاسموا سلفا الغنائم والاراضي المقبلة. أبو يحيى كما سجل في تواريخهم ليس كافرا فقط، ولكنه قرصان ويجب تدمير وكر القرصنة في مايورقا. ١٥٥ سفينة أعدوا عدا السفن الصغيرة. ٣٦ الف محارب جمعوا، الخريف من سنة ٦٢٦ هـ (١٢٢٩)، كان في أوائله حين شهدت شواطىء مايورقا اقبال الاشرعة، عصائب طير تهتدي بعصائب نحو الشاطىء. أشرعة بيضاء تحمل آلاف الصدور السوداء.

أخبار الحملة واستعداد الملك خايمه الاول لها كانت قد ذاعت، وأبو يحيى كان قد أخذ الاهبة التي يستطيع لها. جمع الفين من الفرسان و١٨ الفا من الجند، ونثر بعضهم على الساحل ينتظرون. وحين وصله النذير الاول من جنده يذكر انه رأى ٤٠ شراعا ثم لحق به نذير آخر يقول انه عدّ ٧٠ أخرى. كان أبو يحيى يعالج المشكل الخطير الداخلي الذي تفجر فجأة أمامه في الأيام الاخيرة. في غمرة الاستعداد للحملة المقبلة كان أنصار الثائر ابن هود المعادون للحكم المرابطي قد تآمروا لازاحة أبي يحيى، وقد قبض على أربعة منهم. بينهم، أبناء خاله،

وقتلهم، فضج البلد ضده، وتنادوا للثأر منه. وكان قد جمع ٥٠ من أهل الوجاهة والنعمة أمامه ليؤدبهم حين وصله الفارس النذير وانقلب الأمر. عفا أبو يحيى عن الناس ودعاهم للجهاد فخرجوا وهم ينفضون غبار الموت ليستقبلوا موتا آخر، المعارك الاولى التي انتصر فيها حماة الشواطىء لم تنفع في رد الحملة الكثيفة، التي ما لبثت أن ضربت الحصار على المدينة عاصمة الجزيرة. الملك خايمه كان يدّون يومياته يوما بيوم. ولو قرأنا بعض تلك اليوميات لعرفنا أي قتال شرس كان حول تلك الاسوار التي تتمرى اليوم هادئة على تموجات السفن الصغيرة في الشاطىء. قصص الاشلاء، صرخات الرعب والهول، رنين السيوف وهدير المجانيق تهدم ثم تهدم دون طائل. المعركة استمرت أكثر من شهرين، وبدأ الامل بالخلاص يخبو فانسحب أبو حفص بن سيري أكبر زعماء البلد المتمردين على أبي يحيى وانحاز الى الجبال الوعرة في غرب الجزيرة يقاتل، بينما كان أبو يحيى يحاول المفاوضة على التعويض أو على التسليم والامان أو على الجلاء المسالم. عروضه كلها رغم السخاء لم تلق أي قبول. كان العطش الوحشي للدم قد بلغ بالاراغونيين حد السعار. كانوا ينتظرون الدماء والغنائم، وقرر أبو يحيى ومن معه الدفاع حتى الموت، وحين عبر الاراغونيون باب المدينة بالجهد وعلى الاشلاء. كانت، حتى النساء، ترجم الحجارة من السطوح. ووصل الملك خايمه أخيرا قصر المدينة ولكن على جثث ٢٤ الفا من السكان قتلوا على دم واحد. الذين فروا الى البراري ولجأوا الى الكهوف، لاحقهم الموت، في كهف واحد عصي لجأ ثلاثة آلاف بنسائهم وأولادهم والاغنام. فسدوا عليهم الكهف بالخشب والشجر وأحرقوه

ليختنقوا بالدخان. الذين انحازوا الى الجبال مع ابن سيري سليل جبلة بن الايهم الغساني ظلوا سنتين يقاومون على الصخور الجرداء العصيبة وكان لهم هناك قضاؤهم وأنظمتهم وعصابات الجهاد. جاهدوا وقاتلوا قلعة قلعة، وقلعة قلعة انتزعت منهم الجزيرة وصخرة صخرة. تشبثوا بالارض حتى الموت وماتوا عليها أما أسراهم فوصلت أسواق بيعهم حتى عكا ودمشق والقاهرة والموصل والقيروان.

وتسألني عن أبي يحيى؟ أبو يحيى أخذ بأمر الملك الفاتح خايمه للعذاب ٤٥ يوما احتمل العذاب. ومات تحت العذاب. هذا المظلوم الكبير في النسيان. من ذا ينصفه يا ترى؟ من ذا ينصفه؟

كولومبوس التعيس

لست اذكر اين قرأت او شهدت قصة ذلك الرجل الذي اكتشف كنزا في بعض الكهوف، فعاد يخبر أهل القرية، وخرجوا معه جماعات، وما كادوا يستلمون مدخل الكهف حتى تدافعوا كالشياطين الجائعة، ركضوا اجتاحوا الرجل الذي سقط امام التدافع وبين خفق النعال، وضربات الارجل المسرعة، ضاعت صيحاته جحظت عيناه، واسلم الروح، وبينما كانت الارجل نفسها تذهب وتجيء وتصطدم به ويتصارع اصحابها على تقاسم الكنز، ما ابه احد لكتلة الاشلاء والثياب المرمية عند المدخل، كان شيئا من التراب والدم لا قيمة له. تخطر ببالي هذه القصة كلما تذكرت كريستوفر كولومبوس ومأساته الغريبة. إنه بدوره احد المظلومين في التاريخ. صحيح اننا انزلنا اسمه في الكتب مكتشفا لاميركا، حتى كتب الاطفال تذكره. ولكن ماذا غير ذلك اخذ؟ حتى من التقدير والاحترام لا شيء، لا شيء ابدا.

قبل ان يتحول مشروعه الى حقيقة، قبل ان يتمكن من رؤية اشرعته على صفحة بحر الظلمات، ماذا كان حظ كولومبوس، من هذا المشروع؟ ماذا جلب له؟ الفكرة كانت بالنسبة للناس

فكرة جنونية، ان يذهب في البحر غربا فيخرج من الشرق. ما هذا الجنون؟ ان اشفقوا عليه قالوا انه يحلم منذ كان عمره ١٤ سنة. واشتغل مع قراصنة البحر. كان يتحدث بهذا الحلم لم يكن يتحدث عن علم او دراية. لم يكن يستند الى خرائط او دراسة رياضية، وانما كان حلما، مجرد نبوءة ومجموعة اوهام. وكبر، وكبر الحلم معه، حتى اضحى سخرية البحارة. وحين عرض فكرته على حكومة بلده جنوه تلقته بالهزء الساحق والضحك ملء الافواه. فترك البلد الى غير رجعة، نسيه تماما، حارب ضده مرة على احدى السفن البرتغالية التي احترقت وكاد يغرق، غير اسمه كله، اضرب عن الكتابة والكلام بالايطالية. وقصد البرتغال.

البرتغال كانت يومذاك بلد المغامرين في البحار، الموج كان يرقص للناس هناك، ويغني، وحين اتيح لكولومبوس ان يعرض مشروعه على ملك البرتغال لم يجد لديه اي صدى، كالنار تسقط في المستنقع فلا تخلف سوى بعض الهسيس والدخان، كذلك سقط مشروعه لدى الملك. ولكن كولومبوس كان من الهوس بالفكرة بحيث دفعه الفشل بدلا من اليأس الى التصعيد والتأليه. آمن انه المندوب من القدرة الالهية للمهمة الموعودة، للوصول الى جزائر البحر تلك المذكورة في التوراة. لا تدري كيف آمن بذلك، ولكنه آمن. المشروع كان مجال فخره والسخر في وقت معا. مقابل التحقير كان يلجأ الى وهم التقديس، وحين تزوج اشترط على زوجته ان تحتمل فكرته العبقرية الجنونية هذه. وكم تعبت في مداراتها ومداراته حتى ماتت.

وسعى كولومبوس الى لقاء ملكي اسبانيا الزوجين فيرديناند وايزابيلا، وهما يحاصران غرناطة. وعرض على الملكة مشروعه،

خريطته التي بسطها امامها لم تقنعها ولم تقنع رجال البلاط الذين ظلت لجنتهم تدرس المشروع سنوات دون جواب. ايمانه فقط جعل الملكة تمنحه راتبا يعيش منه، ثم تخلت عنه بعد سنتين ليعرف الجوع، والمرض، والتضور، والتسكع دون هدف في الحانات. حتى ابنه اودعه في بعض الاديرة. النقرس كاد يسحقه، فتهدم جسمه وشاب شعره ولم يكن في المطر يخرج من البيت، لئلا ينفذ المطر الى جسمه وحذائه. ظل اربع سنوات بعد ذلك يطوف من مدينة الى اخرى وراء الامراء لعلهم ولعل، ولم يصل معهم الى شيء، وارسل اخاه البارع في رسم الخرائط الى ملك فرنسا والى ملك انكلترا. واعتذر الاول والثاني كما اعتذر من قبلهم السابقون، وعاد الرجل بخفي حنين. عشرون سنة ظل كولومبوس يسعى فلا يحصد الا التهزؤ والفقر، وان كسب المزيد من الخبرة في الملاحة ومن الحجج والمعلومات المؤيدة للحلم، ولكن الحلم ظل حلما. وذات يوم وعده راهب الدير الذي يأوي ابنه ان يسعى له في مقابلة الملكة ايزابيلا مرة اخرى. وفي اللقاء وافقت الملكة على المشروع ودون ان تنبض اسارير كولومبوس باي فرح او امتنان، انتقل الى الثمن قال: «شروطي ان اسمى اميرا للبحار ونائبا للملك في الارض التي سوف اصلها. وأن يكون لي عشر الموارد والثروات».

وصعقت الملكة لوقاحته وصرفته، صرفته ليعاود الطواف على بغلته لعله يجد من يشتري المشروع. وتدخل بعض رجال البلاط لدى الملك والملكة، قالوا: لن نخسر الكثير، البحارة نأخذهم من المتطوعين والاسرى والسجناء. وثلاث سفن ليست شيئا كثيرا

مقابل ما قد يأتي من الثروة لو تحقق المشروع. فلم لا نلحق الفكرة المجنونة؟ واستدعي كولومبوس من جديد الى البلاط ومنح لمشروعه خمسة الاف جنيه. خمسة الاف جنيه كانت ثمن القارة الاميركية كلها. وثمن سيل الذهب الذي تدفق بعد ذلك على اسبانيا واوروبا اكثر من قرنين واعطاهما ملك العالم الجديد.

وفي العاشر من شباط من سنة ١٤٩٢ ابحر كولومبوس في بحر الظلمات بثلاث سفن و١٠٤ رجال. الخطوة الاولى من مشروع كولومبوس تحققت ولكن هل نجح حقا؟ لقد وصل الامتحان الصعب، لقد ابحر بين شدقي تنين ازرق لا يعرف مداه الا الله. كل قلق الدنيا كان مصبوبا في اعصابه المحروقة. كل توق السنوات العشرين السابقة يجد امتحانه الاخير في هذه الايام الصعبة التي امتدت ٧٠ يوما وامامه لا شيء الا الماء اللانهائي والسماء اللانهائية ورصيد عريق من الاوهام المرعبة عما وراء المحيط. وشعلة امل بجمع كنوز الذهب والماس والجوهر من ارض الصين والهند. كان هذا كله قبل ان يصل الى البر الاخر الذي حسبه الهند، وبعد ان وصل كولومبوس واكتشف ماذا كسب؟ صحيح انه عاد من رحلته الاولى فاستقبل الاستقبال الخرافي، لبس ملابس امير البحر ونائب الملك وجلس بجانب الملك والملكة وخيل اليه انه انتقم للسنوات العشرين السابقة من السخر والتهكم والفقر. ولكن هذا كان مكافأته الوحيدة والاخيرة. لم يكن بامكان كولومبوس ان يحتكر البلاد الجديدة المكتشفة والبحر مفتوح الصدر لجميع الاشرعة والمغامرين ولم تعترضه صعوبة مرعبة تقطع طمع الناس في تقليده. هل فعلت الا انك

سرت غربا غربا حتى وصلت؟ كذلك قالوا له في لهجة هي بين الحسد والاستهانة، ومن ذا الذي لا يستطيع ان يفعل ذلك، بعد الرحلة الاولى كل رحلة اصبحت سهلة مغرية وممكنة ولا تحتاج لاكثر من الابحار على الشراع.

قام كولومبوس بعد رحلته الاولى برحلات ثلاث فقط الى الارض الجديدة ولكن ملكي اسبانيا لم يقوما بالعهود التي اعطياها له. وكيف يتنازلان له عن عشر الموارد والارض والثروات والرقيق. وما لبث كولومبوس ان فوجىء في رحلته الثالثة هناك بتعيين حاكم باسم الملك بدلا عنه. فلما اصطدم به وصفعه اصدر الحاكم امرا بالقبض عليه وسيق من الارض الجديدة الى اسبانيا بالسلاسل. وما ان علم الملكان بالامر حتى امرا بفك قيوده وهو في ميناء الوصول لكنه اصر ان يمشي في الشوارع بتلك القيود حتى بكى له الناس وفكوها بانفسهم. وخصص الملكان له معاشا سنويا ما لبث ان انقطع حين ماتت الملكة. وماذا بعد ذلك؟ عاد كولومبوس الى مصارعة المرض والفقر والنسيان، كان يكتب مذكرة بعد المذكرة الى الملك يطالب بحقه، برأسماله من الشرف، وبحكم بلاد الهند الشرقية وبعشر وارداتها، وتنام المذكرات في سلال المهملات بينما كان المغامرون الاخرون من كل الملل ينهبون البلاد المستباحة بنهم الجياع الاف الاعوام. حتى البلاد التي اكتشف لم تسم باسمه، اعطيت اسم غيره فهي بلاد اميركو فسبوتشي لا بلاد كولومبوس ولقد مات في الاهمال المطلق بعد سنتين فقط من رحلته الاخيرة لا يدري به احد، مات ايضا، وهو لا يعلم انه اكتشف اميركا والناس زحف الجراد اليها والى ذهبها، أليس كولومبوس بالمظلوم أليس بعاثر الحظ يا ترى؟

المستعصم آخر العباسيين

المغول، التتر، جنكيز خان، اسماء تهجم على الالسنة كلما جاء ذكر الدماء، انها تمشي في التاريخ في مواكب من الجماجم. صورتها لدينا، عيون صغيرة مائلة وخدود ناتئة وشارب مرسل وشعر اشعث، وزعيق يبدأ في الصين لينطح جبال الشام، وخبب من الحوافر تحسبه خبب الابالسة الزرق. كان شعب يأجوج ومأجوج دوما ذا صورة شيطانية لدى المسلمين. هم مفسدون في الارض، وسد من ذوب الحديد اقيم دونهم. وفي مطالع القرن السابع للهجرة توحدت صورتهم مع صورة المغول لدى اهل هذا الشرق الاسلامي كله حتى حسب الناس ان السد انهار وفتحت يأجوج ومأجوج فروجه فهم من كل حدب ينسلون. الطوفان البشري المرعب، الذي تدفق من صحاري منغوليا على الدنيا قبل سبعة قرون، لم يترك شعبا ما بين الصين الى الهند الى قلب اوروبا الا داسه بالسنابك. وفي سنة ٦٠٣ يوم تجمع زعماء المغول وقام سبعة من خاقاناتهم فرفعوا زعيمهم المدعو تيموجين الى عرش عال وانحنوا على ركبهم امامه تسع مرات ولقبوه جنكيزخان، اي ملك العالم، كانوا في الواقع يقررون مصير العالم. كانوا يريدون حكم العالم، لم تمض ٥٠ سنة على هذا

التتويج حتى كانت امبراطورية المغول تشمل الصين وصحارى المغول وآسيا الوسطى وايران حتى اطراف الهند والقفقاس وآسيا الصغرى كما تشمل روسيا وبولونيا واواسط اوروبا. كانت اوسع امبراطورية عرفها العالم على الاطلاق. الجناح الغربي من هذه الامبراطورية، الذي يشمل الشرق الاسلامي كله والسهول الاوروبية كلها، منحه الخاقان الاكبر منغوخان لسيف شقيقه هولاكو، مع جيش من ربع مليون فارس كالجان لم يجتمع مثله لقائد من قبل.

من خلال هذه الامبراطورية وبهذه القوى خرج هولاكو، سنة ٦٥١ هـ من قرقوم عاصمة المغول المتفردة كالوحش الذهبي، في الصحارى نحو بغداد والخلافة العباسية. ووقعت الواقعة التي نعرف. انهارت بغداد تحت المجانيق والسنابك وسقطت الخلافة العباسية سنة ١٢٥٨/٦٥٦ المسلمون في ذلك العصر امراؤهم والبسطاء مزقهم الروع والالم، تبادلوا تهم التقصير والخيانة والبكاء فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون.. من المسؤول؟ كان لا بد للكارثة من ضحية تحمل الاوزار. الخليفة كان في تلك الايام رمز الدين، كان عنفوانه، كان قدسيته، جزءا من الايمان بثبات العالم وتفوق الاسلام، فكيف سقط؟ كيف ديس بالارجل الوثنية حتى الموت، ولم تطلع الشمس من مغربها؟ والقي في قفص الاتهام اثنان: الخليفة المستعصم نفسه بوصفه اللاهي المهمل والوزير ابن العلقمي الخائن، وسجلت القضية ضد هذين المظلومين، لينفض الباقون ايديهم من مسؤولية الانهيار والكارثة والعقاب. ذكروا ان الخليفة المستعصم كان شديد البخل حتى لقد حاسب ضيفه الملك

الناصر الايوبي على ما انفق عليه من خبز ولحم. وحتى جنوده قطع عنهم الارزاق والمغول قادمون. فبعض من جنده ركب المطايا الى غيره في الشام، وبعض الى العدو، وبعض بقي يتسول في الجوامع والاسواق ليعيش. ويقولون ان هولاكو بعد ان سجن الخليفة وشهد ما لديه من الجواهر والفضة والثروة، وبعد ان وجد لديه حوضا مملوءاً بسبائك الذهب في باحة القصر، كل سبيكة مئة مثقال، جاء به وعنفه اشد التعنيف على انه لم ينفق ذلك في جيش يحميه ويمنعه فقال المستعصم: «ذلك تقدير الله». فقال هولاكو: «وما سيجري عليك ايضا سيكون بتقديره».

وامر الحراس ان يقدموا له بدل الطعام طبقا مليئا بالذهب، فلما قال: «كيف اكل الذهب؟» قال له هولاكو: «اذا كنت تعرف انه لا يؤكل، فلماذا لم تفرقه في عسكرك واعوانك، لتفدي نفسك وتحفظ ملكك؟».

وذكروا عن الخليفة المستعصم ايضا انه كلما نصحه الناصحون ونبهوه الى الخطر الداهم كالتنين الوحشي قال: ان بغداد تكفيني ولا يستكثرونها علي اذا تنازلت لهم عن باقي البلاد. وذكروا عن هذا الخليفة الاخير انه كان مستضعف الرأي ضعيف التدبير غير واع للخطر، ترددت الرسل بينه وبين هولاكو قبل سقوط بغداد، فكان يحاول دفعه بالاوهام، يهدد المغولي الزاحف بملوك الارض الذين سوف يهبون من الشرق والغرب للدفاع عند اول اشارة منه، ويهدده بقدسية الخلافة التي ما ابتغى الشر لها احد الا هزم ودمره الله. ويسجلون على هذا الخليفة اخيرا انه كان للنساء والطرب لا يسمع بمغن الا بعث يطلبه من بلده. ذات يوم كتب

الى بارز الدين لؤلؤ صاحب الموصل يطلب منه جماعة من المطربين. ووصل الى هذا الامير في اليوم نفسه كتاب من المغول يطلبون فيه معونتهم بالمنجنيقات وآلات الحصار، فقال لؤلؤ لاصحابه: «انظروا الى المطلوبين وابكوا على اسلام واهله». واخيرا يذكرون ان الوزير ابن العلقمي بسبب نقمته على قائد الجيش العباسي كان يكاتب المغول ويستدعيهم لاحتلال بغداد ونكبة الخلافة. ويروون انه جاء بأحد مماليكه، فحلق رأسه بالموسى وكتب عليه رسالته الى المغولي القادم وانتظر حتى نبت الشعر فأطلقه اليه. وقرأ هولاكو الرسالة ثم قتل المملوك. ففي اخر الرسالة كتب ابن العلقمي «اقطعوا الورقة». وهكذا انتهت بغداد الى الكارثة. تحولت في ايام من سنة ٦٥٦ الى دور مهدمة وحرائق لاهبة والى قتلى كالتلول في الطرقات، تحت المطر او في السراديب والقنوات والآبار، حتى نتن الهواء فلا يمر بأزقتها عابر الا وفي يده بصلة يستعيذ بها من الريح. اما الخليفة فلأن دم الملوك حسب طقوس المغولية لا يجوز ان ينزل الارض فقد وضع في كيس وما زال يضرب بالارجل حتى لفظ الانفاس.

هذه الصور تصلح للعبرة وللقصص وقد يكون فيها الكثير من الحقيقة، ولكن هل هي كل الحقيقة؟ باقي الحقيقة، لو عرفنا الباقي قد يرفع الظلم الكثير عن المستعصم القتيل وصاحبه. فالخلافة العباسية لم تكن يومذاك اكثر من امارة صغيرة تشمل فقط نصف العراق اليوم، كانت اسما ضخما على بضعة اشبار من الارض والموارد فكيف لها ان تقف لامبراطورية الدنيا المغولية وحدها ولمواردها وجيوشها؟ ولقد كان يخطب للخليفة على المنابر

في كل بلد، ولكن كان لكل بلد اميره الذي لا يأبه الا لبلده وارضه. الشرق الاسلامي كان عشرات من الامارات والسلاطين، ظل الخطر المغولي يهددها ٤٠ سنة فما تحركت خطوة لتكوين حلف بينها. فراغ عسكري كبير كان هذا الشرق. بل، كثير من الحكام عفروا الوجوه بالتراب وهم يتعاهدون على التوحد في وجه المغول ولكن لم يزيدوا على التعفر خطوة، لم يجمعوا جنديا الى جندي حتى عفرت كراماتهم وجثثهم في التراب. وبعض حكام المسلمين في الموصل والجزيرة والشام هادنوا المغول رعبا وهلعا، عاونوهم بآلات الحرب، سعدوا ان يتلقوا منهم «البايزة» تلك الصفيحة الذهبية التي تحمل صورة اسد وينقش عليها الخاقان امره بتوليتهم السلطة في بلادهم. ولم تكن النوايا المغولية بالخافية على الخلفاء في بغداد ولا بالمفاجئة. ١٣ هجمة هجم المغول عليهم خلال ٤٠ سنة ملأوا بالجثث والدماء فدى المشرق كله فما تحرك اباء واجداد المعتصم، ولا تذكروا الامر الالهي «واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل، ترهبون به عدو الله وعدوكم». كل ما فعله جند المستنصر انه امر بالقنوت في الصلاة وقد ظل جيش هولاكو يسير نحو بغداد على مهل ست سنوات، نظف امامه الطرق، نصب الجسور، شتّى وصيّف. جمع آلة الحرب وكل الشرق الاسلامي مبهوت، مشلول الارادة، ينتظر المصير المحتوم. الجبال كانت تهتز لمسيرة الجيش المغولي والملوك ترتجف منها العظام، وكل يظن انه بعيد عن الخطر الكاسح او انه اذا هادن المغوليين وسالمهم نجا، والسيل هو السيل يكتسح الاخضر واليابس. ولم يكن المغول بحاجة الى ابن العلقمي ولا

الى استدعائه لهم ولا الى رسائله. كان امر الخاقان الاعظم منغوخان قد صدر منذ سنة ٦٥١ بالمسير لاخذ العراق والشام ومصر. وكان المغول قد ساروا وسيروا جواسيسهم في كل مكان وكانوا يعرفون ان بغداد الخلافة ليست اكثر من عصفور يلعبون به. يعرفون مدى ضعف الجناح الذي يضربون. بغداد كانت ساقطة في ايديهم قبل ان تسقط بمنازعاتها الطائفية، وفتن الاحياء فيها، وانتشار اللصوص، وتفشي الجوع، وهرب الجند، وتراكم اللاجئين، وتكاثر الشطار.

وبالفياضانات التي دمرتها مع اهمال نظام الري وتناحر رجال الحكم حتى ايام الحصار، ومع كل اولئك فقد قاتل جيش الخلافة، قاتل حتى الجندي الاخير. هل كان باستطاعة المستعصم وحده تغيير هذا المصير وهو جزء منه؟ اليسوا يظلمونه وهم يحملونه وحده اوزارا كانت اوسع بكثير من اكتافه؟ العصر كله كان عصر انهيار وتخاذل. ولهذا سقطت بغداد. وما اشبه الليلة بالبارحة!

الحاكم بأمر الله بين التأله والجنون

في التاريخ شخصيات شتى تلفعت بالضباب والغموض او اضحت اساطير، اساطير فما تكاد تستبين لها حقيقة في الظلام، وفي التاريخ اسماء عديدة اختلف فيها الناس، فهي على ارجوحة الاهواء بين الكره الاسود وبين اقدس الحب. وفي التاريخ رجال كانوا قضايا، عقدا محيرة من الدماء، ومن غريب الاعمال فوراءهم خط طويل من اشارات الاستفهام، وبهلوانيات الجدل والتفسير. اما ان يجتمع ذلك كله في رجل واحد ويكون ذلك الرجل خليفة معروفا، عاش بين الوف الخدم وعيون الملايين من الرعية خلال حكم دام ربع قرن وان يصل به قوم الى الالوهية، بينما يسلكه اخرون في زمرة المجانين. وان يحتار الناس في التوفيق بين طغيانه الدموي ورقة قلبه. وبين جبروته وزهده المسكين، وان يترك بين هذا وذاك فرقة مؤمنة به الى اليوم بعد عشرة قرون. اما هذا كله فلم يجتمع، فيما اعرف، الا للخليفة الفاطمي السادس الحاكم بأمر الله. هذا الخليفة مر في الدنيا مسرعا جدا. ٣٧ سنة كان كل عمره، ومع ذلك فقد جمع في اهابه في السير المعروفة له بين الناس سيف جنكيز الظامىء وشيطانية نيرون الذي احرق روما وهو يغني على القيثار، وزهد

الف زاهد يبكون خشوعا في البيع، واعداؤه، لا تسأل عن اعدائه، صفحته سوداء لدى المسلمين.

وصحاب دعوته الحاكمية المؤمنون به يقرون بانه ارتكب افعالا مظلمة تحير العقول. النصارى بدورهم كانوا يندرون باضطراب رأيه واوامره. الكل يجمعون على وصفه بالطغيان. كان طاغية من الطغاة لا يكاد يعرف احد متى تقع شفرة سيفه في عنقه. الاقربون والابعدون كانوا يعيشون على حد هذا السيف، حتى العامة. كان احيانا يقف في السوق، وما اكثر ما كان يقف، فيأخذ احد الركابية معه فيذبحه بنفسه وينثر امعاءه ثم ينصرف، ليبعث اليه بالاكفان، الارهاب جعل الناس كالشموع طوع بنانه، بلغ الرعب والروع في الناس انهم تسامعوا مرة بحفرة هائلة يحفرها في الجبل، فلم تبق طائفة الا ظنت انها انما تعد لاعدامها. وذهبت الطوائف والجماعات تتضرع، تبكي، تقبل الارض امام قصره، تطلب الغفران والامان. ولم تهدأ الخواطر حتى صدر عن صاحب القصر اكثر من ١٠٠ كتاب بالامان تؤمنهم جماعة، جماعة. ويحكون عنه بعد هذا غريب المتناقضات. سفكه الدموي يضم اكثر من ٥٠ من كبار رجال الدولة. كبار الكبار قتلهم بعد ان منحهم كل الثقة والقوة. وكان السيف يأخذهم دوما بغتة. وبعضهم ذبح ولما تمض خمسة ايام على تعيينه. امر بأن يكتب سب الصحابة في الجوامع ويتلى على المنابر. وعاقب الرافضين بالقتل، ثم عاد فأمر بمحو ذلك كله وبمنعه وحين عثر على من يسب قتله.

رسم بهدم الكنائس والبيع، فأخذت المعاول الكثير منها في

مصر وفي الشام. ثم عاد فأمر ببنائها وترميم ما تصدع منها، كان التنجيم من هواياته. اقام على المقطم منزلا لرصد النجوم كان يخلو به الليل للرصد والغيب. وكان الفلكيون والمنجمون يحظون بعطاياه ورعايته سنين، ثم انقلب عليهم. فحرّم صناعة التنجيم وامر بنفي المنجمين من البلاد ولم يرفع عنهم المنفى الا حين استتابهم قاضي القضاة وكتب عليهم عهد التوبة. وكذلك تاب المطربون والمغنون، جاء وقت منع فيه من العمل في النهار فالاسواق والاعمال تكون بالليل وعلى الناس ان يوقدوا الشموع والاسرجة على كل بيت، ودكان حتى غدت القاهرة شعلة في الليالي. ثم عاد عن ذلك فمنع العمل وحتى الخروج في الليل. فكانت المدينة بعد غياب الشمس تعود الى صمت القبور. وامر بقتل الكلاب فخرس النباح من كل فج. ومنع الحاكم بأمر الله بعض المأكل. بلى فالملوخية والترمس والجرجير والمتوكلية وبعض السمك حرام على الناس. ومنع بعض الالعاب، فالشطرنج ممنوع وإلا فالجلد والتشهير والاعدام. وكانت النساء مشكلة عند هذا الخليفة. حرم عليهن حضور الاحتفالات ثم كشف الوجوه في الطريق او خلف الجنائز، ثم حرم عليهن الزينة والتبرج، ثم حرم خروجهن من البيوت ابدا، فلا يخرجن الا لبيوت ازواجهن أو الى القبر، ومنع الحذائين من عمل الاحذية النسائية ابدا، بل منع النساء من التطلع من النوافذ. السنوات السبع الاخيرة من خلافة الحاكم كانت سجن النساء. الباعة على الابواب كانوا يبيعونهن بواسطة اداة كالمغرفة لها ساعد طويل يحمل اليهن البضاعة وراء الابواب ويحمل الى البائعين الثمن. هل ازيدكم بعد هذا من هذا الحديث؟ ثمة المزيد منه.

على ان الذين يرون ان الحاكم بأمر الله مظلوم في هذه الصورة التناقضية ليسوا بالقلائل. انهم لا ينكـرون حقيقتها، انها من صميم اعمال الرجل، ولكنها تظلمه ابشع الظلم حين توضع خارج اطارها الاصلاحي. الحاكم بأمر الله في الصورة الاخرى له، مصلح اجتماعي، ديني كبير. مصلح على طريقته الصلبة الجذرية ولكل امر من اوامره سببه وتعليله وهدفه، ليست نزوات مخبول، ولا اهواء شرس غدار فاقد للاتزان، ولكنه سيف الاصلاح ذلك، فالسارج لهذه الدولة دعاه الى تطهيرها بالسيف، واما سب الصحابة فكان في تقاليد الدعوة الفاطمية، فلما رأى خطأه تراجع عنه، وأهل الذمة تسلطوا على البلد وتآمروا فهدم معاقلهم الدينية. ولما انابوا بناها لهم، وقد تمادى المنجمون في اللعب بعقول الناس وكثر اللهو والشراب فحرم ذلك. وقد دعته حرارة جو مصر الى العمل بالليل فلما رأى في ذلك مفسدة ونفقة زائدة عاد عنه، واما المآكل فكان منعها حفظا لصحة الناس ولما اورثت من الامراض. واما قصة النساء فان ما اعترى المجتمع في عهده من الفساد والاستهتار لم يكن له من حل حاسم سوى ذاك. اخر الدواء الكي، ولا حسم للغواية الا بالسجن. ويضيف المدافعون عن هذا الخليفة اننا ننسى للحاكم بأمر الله وجهه الاخر وجه التقوى والعدل والدين الرائع، فهو اولا كان الأب الراعي لرعيته ما عرف التاريخ خليفة مثله. يركب يوميا لتفقد احوال الرعية للاتصال بها والوقوف مع هذا والحديث مع ذاك. ويجتمع حول البسطاء ويمازحهم ويتسلم رقاع التظلم بنفسه ويغدق على الناس من العطايا الكثير الكثير، ولم تمتد يده ابدا الى اخذ مال احد من الناس حتى من المغضوب عليهم وقد الغى

جميع الضرائب والمكوس في ايام الازمات والشدة.

مؤرخ معاصر من اعدائه قال عنه: انه اظهر من العدل ما لم يسمع به. وما زال اهل مملكته آمنين على اموالهم غير مطمئنين على نفوسهم. بل اعاد الاموال التي كان صادرها اجداده الى اصحابها. وهو ثانيا كان يكره البذخ والمواكب الفخمة ودنيا الذهب والجوهر والرفاه. كان التواضع كله والتقشف كله. يركب الحمار بدل الخيل المسومة، ويخرج مع ركابي واحد بدل الموكب الفخم ويضع خرقة عادية على راسه بدل عمائم الحرير والزمرد. ولا ينزع جبته السوداء الصوفية حتى تأكلها الرتابة، وقد الغى ما كان يخاطب به اباؤه من الالقاب واكتفى بأمير المؤمنين ومنع ما على بابه من الطبول والابواق. زهد في الدنيا دنيا الناس ولا زهد المُمرين. والف الليل، شغف في الليل فهو يجلس الايام الطويلة في الشموع وفي الظلمة يتأمل ويفكر والحاكم بامر الله ثالثا قد منع الخمر من بلاده. اقتلعها من اساسها لم يمنع عملها فقط ولكنه اقتلع حتى الكروم ومنع بيع العنب ورمى الزبيب تحت اقدام البقر والقى الآف جرار العسل في النيل وكسر اوعية النبيذ واراقه. وقتل على شرب الفُقاع. ومقابل ذلك بنى الكثير من المساجد ورمم الكثير، واوقف الاوقاف على مالا اوقاف له منها. اليس في هذا كله ما يشهد بظلم التاريخ والناس له؟ بلى، قد يكون، لكن المشكلة التي سحقت الحاكم بأمر الله والتي اعطته الشخصية الشيطانية رمته في دنيا الجنون هي التأله. الضربة القاصمة لسمعة هذا الرجل جاءت مما ذكروا عنه من الدعاية الالوهية. هذه الدعوة وحدها تكفي لتسلكه في الهالكين

وفي المجانين فبماذا يدفع الدافعون هذا عنه؟ المدافعون ينفون عنه هذه الدعوة كل النفي يقولون انها من انحراف بعض دعاته. وقد اتى عليهم بالسيف وهي من تهم الاعداء. وانما دعا الحاكم الى التوحيد انشأ فرقة دينية لمذهب التوحيد هي الفرقة الحاكمية. التي لا تزال الى اليوم على العهد. ان صح هذا وصحت التفاسير للاعمال المتناقضة كان الرجل مظلوما اشد الظلم ولكن متى تصح؟ ومن يصحح. سيظل الرجل على الصراط بين المظلوم والظالم الى أن... سيظل شخصية مثيرة للفضول والجدل ويظل علامة استفهام كبيرة. يظل غموضا يتحدى الى أن... كل ما نملكه فيه الان كلمتان: الله اعلم.

اتاهوالبا ملك الانكا الاخير

مرة اخرى اعود الى الحديث عن الهنود الحمر، اهل الريش والجسد النحاسي. هذا الحديث يأسرني، يسكن عروقي، يشجيني. لعل ذلك لانه يحك جراحي. لأني ارى فيه اسقاطا لما يجري باهلي وبلادي. انا فيه بائع الاحزان الذي لا يعرف لمن يبيع حزنه.

الحديث هذه المرة عن شعب مظلوم آخر من اولئك الهنود، شعب الانكا. على امتداد خمسة الآف كيلومتر ومساحة مليون كيلومتر مربع، كانت تمتد اراضي هذا الشعب في غرب اميركا اللاتينية، تنحدر من قمم جبال الآند العاصفة بالثلوج الدائمة، والزمهرير الى شواطىء المحيط الهادي. الخضم اللانهائي الذي يغطي ثلثي الكرة الارضية. وفيما بين الشواطىء والقمم تزحف الصخور الحادة كأنها ارض الجان، او انياب تنين خرافي يبتلع العالم. حتى تبلغ اربعة، او خمسة او ستة الاف متر في الارتفاع هناك في زعمهم مأوى الارواح ولا يقترب الانسان.

واذا كانت الثلوج تنداح في احدى الهضاب الشاهقة لتشكل اعلى مسطح مائي على الارض، بحيرة «تيتي كاكا» المقدسة ذات

الجزيرة الالهية والتي كانت تتقبل الضحايا البشرية عند شروق الشمس، فإن الثلوج تنهار على الصخور العارية لتمنحها الغابة الكثيفة السواد تارة او لتقطعها تارة اخرى بالمهاوي الخرساء والاوعار والاخاديد. يجري في اعماقها الذي يسمونه انهاراً وماء. ليس ثمة من سهول واسعة، شعب الانكا كان يتعامل مع الصخور المردة، ينحت عليها معابده ذات الادراج الحجرية تحسبها تود الصعود الى السماء. كما يسوي عليها مدارجه الزراعية شرفة بعد شرفة حتى الاعماق، ويمد بينها اقنية الماء مئات الاميال. حضارة هذا الشعب كانت تقوم على الذرة في الطعام وعلى القطن، وعلى حيوان الياما الذي يشبه الجمل في الرأس والعنق والوبر، والحمار في الحجم للنقل ونسيج الوبر.

وكان شعب الانكا يصوغ الذهب الكثير عنده والفضة اروع الصوغ. حتى ليصنع منها الاطباق وادوات الاكل والجلوس وزينة الجدران والصدور. اما في البناء فيالروعة الابنية، اقامها الانكا من الصخر النحيت. كل حجر في كيانها خمسة او ستة امتار ملأوا بها البلاد قصورا ملكية باذخة، ومعابد ذهبية الجدران، واضرحة ممردة، وشوارع كأنما رسمت بالقلم، وقلاعا اعاليها ترعب الطير، وربطوا البلاد بعد هذا بشبكة من الطرق تخرقها بين شمال وجنوب وواد وجبل. كانت تزيد على ٢٥ الف كيلومتر، وجسورها المعلقة من الخشب والحبال تسبح احيانا ٦٠ مترا فوق رعب الوديان السحيقة.

وللانكا طبهم وعملياتهم الجراحية الخطرة. ولهم الفنون والرسم والخزف والنحت والتزيين.. ولهم.. ولهم. على ان نظام

الدولة كان اعجب ما ابتكر هذا الشعب. كانت الدولة استبدادية، السلطان الوحيد فيها هو السابا، الملك، بلى! ولكنها كانت دولة الخدمات الاجتماعية الكاملة. كل الثروات والانتاج ملك للدولة. بلى، ولكن لم يكن أحد يحتاج شيئا. لا غني ولا فقير، لأن على الدولة اعطاء كل فرد ما يكفيه من الطعام واللباس والمسكن الحسن. لكل فرد حصته الوافية من كل شيء. وفي الازمات عليها ان تحميه، واراضي الانكا ثلاثة اقسام يعمل بها الجميع: الاول للاله والكهان، اقراص الذهب والفضة في المعابد تمثل الشمس والقمر، وتبتلع هذا القسم. اما الثاني فللملك والجيش والحكومة. اما الثالث فللناس كل ثروة لدى الانكا من الذهب الى الذرة الى وبر الياما كانت تقسم هذه الاقسام الثلاثة.

هذا الشعب ذو الاجساد الحجرية والوجوه الصلدة المحرومة من اللحى والشديد الذعر من مظاهر الشؤم كان من سوء حظه، انه في الوقت الذي كانت القوى الاسبانية تهيء للحملة عليه كان يعاني من سلسلة من النكبات الزلازل ضربت مدنه فوق رؤوس اصحابها. الشائعات ركضت بان القمر الاله الام ظهر بثلاث هالات احداها حمراء فآمن الجميع بقرب الدمار. السابا الملك الاعظم، كان في حرب اهلية مع اخيه انتهت بانتصار هذا الاخ الشاب اتاهوالبا، ولكن بعد ان ضاعت في الوديان آلاف الاشلاء والقوى، وكان اتاهوالبا هو السابا الثالث عشر. وحين وصلت الحملة الاسبانية الغازية شواطىء الانكا وصعد فرسانها ذوو اللحى الطويلة في الدروب الجبلية، كان الهنود يفرون منها

فزعين. تراكضت الاخبار الى السابا اتاهوالبا. لقد جاء الرجال البيض ذوو اللحى، اسياد الثور على وحشهم اللامع ذي الارجل الأربع.

كانت الصورة قديما لدى الانكا تنذر بوصول اسياد النور ذوي اللحى ذات يوم، اما الوحش فكان هو الفزع. وما هو سوى الحصان الذي كانت صخور البلاد تحس لاول مرة قرع حوافره. حسبوه مع فارسه مخلوقا واحدا غريبا، جلده اللامع هو تلك الدروع الحديدية السابغة، حين كان يصهل او ينفخ من منخريه كانوا يرتعدون في المخابىء، لم يعودوا يستطيعون القتال. شلت شجاعتهم امامه. الصدمة كانت سيكولوجية بقدر ما كانت مادية، حتى حين عرفوا ان الفارس والفرس مخلوقان اثنان لا واحد ظل الحصان فترة طويلة فزعا، رعبا مثيرا، كائنا خارقا يتجنبونه ويخطبون وده ويتفادون غضبه بالهدايا وبالطعام الانساني الذي لا يستطيع تناوله.

الحملة التي وصلت بلاد البيرو، بلاد الانكا، كانت لا تزيد على مائتي فارس يقودهم سفاح من الجبارين اسمه فرانسيسكوبيسارو. ٥٠٠ كيلومتر ظل يزحف على الشعاب الملتوية الوعرة حتى وصل الهضاب العليا للانكا، وصل احدى مدنهم الكبرى «كاخاماركا»، ولكنه مع حملته كان يسحقهم الاجهاد. دروعهم الثقيلة قد ارهقتهم حملا، المرتفعات ضربتهم بالدوار. البرد الشديد خدر اطرافهم. والارض حولهم بدت كما لو كان لها اربعة ابعاد. كان منظر العالم الذي يرونه غريبا كما لو كانوا يجولون فوق كوكب اخر. لكن اعينهم كانت تبحث في قلق

في كل الاتجاهات عن شيء واحد. تبحث عن الذهب. هذه الكلمة السحرية كانت هي التي تجرهم في الدروب، تنعش قواهم كلما اصابها الاعياء والخوار واليأس. تلتمع امامهم في اغراء الف غانية. كانوا قد سمعوا عن ذهب الانكا، الاخيلة التي لا تصدق عن القصور المبنية لبنة من الفضة ولبنة من الذهب. عن الزمرد كالحصى. عن المعدن الاصفر الثمين يسيل بين الايدي ويكنس في الطرقات، وحين وصلوا اخيرا الى «كاخاماركا»، كان السابا اتاهوالبا قد سبقهم في الوصول اليها. كان الذهول لا يزال يأخذ بيسارو وفرسانه، وعيونهم التي تلتهم الذهب والفضة هنا وهناك حين وصل الملك. ما كان اتاهوالبا يظنهم اعداء وان لم يطل الوقت به لمعرفة هذه الحقيقة. لقد استقبلهم في ساحة البلد المربعة. جاء في موكب يتقدمه الف من الامراء والمغنين والراقصين ويحمل المحفة له اثنا عشر رجلا، لكن بيسارو وجماعته ما ابهوا الا للذهب الذي ينسج الملابس، يطوق الاعناق، يتدلى في الاذان حتى يجعلها اشبه بالاطباق الصغيرة. وذهب العرش خاصة. وما ادراك ما ذهب العرش الذي يجلس عليه اتاهوالبا، وما الشمس التي تخطف الابصار فوقه، وذلك الطوق من الزمرد الضخم الذي يملأ صدر الملك، وذلك الثوب الموشى بالذهب والحجارة الكريمة التي يرتدي.

وتقدم راهب من رجال بيساروفتلا كلاما بالاسبانية على اتاهوالبا لم يفهم منه الملك شيئا. ورفع بيده كتابا لا يعرف الملك ما هو، فهذه اول مرة يرى فيها كتابا، لكن الكلام حين ترجم له جعل شفتيه تضطربان من الغضب. كان الراهب يطلب منه

الخضوع لملك اسبانيا وان يسلم بلاده اليه، وان يتنصر هو وشعبه وان يتبع الانجيل، وتناول السابا الكتاب من الراهب فقلبه بين يديه ثم وضعه على اذنه ثم رماه. «انه لا يقول لي أي شيء»، هكذا قال. وما كاد يلقي الكتاب حتى انطلقت بنادق الفرسان وتحولت الساحة، سيوفا ودماء واشلاء تتناثر. تحول الاحتفال الى مجزرة، فقد كان الانكا غير مسلحين. وتقدم بيسارو فخلع اتاهوالبا عن عرشه الوهاج، ودفعه امامه الى بعض البيوت، في الليل كانت اكثر من ثلاثة الاف جثة تملأ طرقات المدينة المنكوبة، ونهب الذهب والفضة. نهب كله في كل مكان، بعد ايام فهم اتاهوالبا السجين ان هؤلاء القوم انما يريدون الذهب والفضة والجوهر. فوعدهم ان يعطيهم غرفة ملأى بالذهب واخرى ملأى بالفضة مقابل حريته. ورضي بيسارو بذلك وانطلق رسل الملك الى انحاء المملكة لجمع الفدية. كميات الذهب التي جاءت كانت رهيبة، تزيد قيمتها على مليون ونصف المليون دينار ذهبي وعلى خمسة اطنان من الفضة، كان منها الشمس الذهبية للمعبد الاعظم. ومنها مقعد ذهبي ينساب منه الماء الى بحيرة صغيرة تسبح فيها الطيور، من حولها رجال يسكبون الماء، ومنها التماثيل ومنها الاواني والحلي العجيبة الصنعة. كل ذلك تقاسمه الفرسان، وقبل ان تنقضي الليلة الاولى على القسمة كانوا قد قامروا به وخسر معظمهم نصيبه في القمار. اما اتاهوالبا فلم يطلق سراحه. عمدوه بالرغم منه في السجن ثم قتلوه ليموت على الدين، وانطلقوا فوق الاراضي البراقة ينهبون ويطلبون المزيد، المزيد ايضا من النجدات للنهب والتدمير. وديس الانكا بالسنابك بعد اقل من سنة، كانت حضارة الانكا الباذخة اطلالا تذروها

الرياح، وعدة اطنان من الذهب تحملها المراكب الى اسبانيا.

الم اكن على حق حين عدت بك الى حديث الهنود الحمر؟ وهل انا في قصة هذا الشعب المظلوم المنكوب بائع الاحزان ام بائع العدالة؟

الشعب الذي أبيد

الهنود الحمر تراهم في الافلام أجسادا نحاسية مزينة بالريش وعيونا تختزن الشرر الاسود يخرجون فجأة بالسهام كبعض الجان ويغيبون على خيولهم العاريات كالعواصف. يسكنهم اللؤم والغدر ويسكنون قبائل الخيام. أهؤلاء هم حقا الشعوب التي فاجأها الرجل الاوروبي الابيض هناك على الطرف الآخر من المحيط يوم عبر المحيط قبل ٥٠٠ سنة؟

الحديث عن الهنود الحمر حديث عن مأساة ٣٠ مليون انسان أبادتهم البندقية الاوروبية والمدفع، عن جريمة اشتركت فيها جميع القوى الاوروبية وكان لها أكثر من جنكيز خان واحد وكانت عملية من أفجع عمليات الابادة الجماعية في التاريخ. باسم الكنيسة والمدنية هذا الثنائي الساحق تمت العملية. وكل أقنوم من هذا الثنائي كاف وحده لتبرير كل شيء. كريستوف كولومبوس في صورة الرمزية هناك وراء المحيط يرسمونه دون مواربة بشكل انسان من شقين، شق يلبس الزرد ويحمل السيف، وشق في سواد الكهان يحمل الصليب، الحلف بين السيف والصليب

دفعت ثمنه دما تلك الملايين المنكودة الحظ في العالم الجديد ودفعته أولا أشلاء وابادة وسحقا تحت الحوافر ثم دفعته تشويها لحضارتها ومكانها الانساني وتدميرا لعمرانها تحت ضغط العطش القاتل للذهب.

كل تلك الانماط الاخرى من الفكر والحياة والعلوم والعقائد والاساطير وطرق الحياة والبناء والتنظيم الاجتماعي والحرب التي تطورت على حدة في تلك الاصقاع خلال القرون الطويلة السابقة لكولومبوس كل أولئك مسح حتى البشر لأن الاوروبيين كانوا يملكون البندقية من البارود والحصان ويعرفون النحاس والحديد. كان الحق معهم وعلى تلك الحضارات الاخرى ان تموت.

مؤرخو أميركا المتعصبون لتلك الاقوام المنكودة يسمون ذلك القتل الحضاري الجماعي بـ«القصة السوداء». والهنود الحمر لا هم هنود ولا هم حمر. جهل كولومبوس وأصحابه أطلق عليهم هذا الاسم حين كان يحسب انه وصل المشرق والهند، وانكشف الخطأ بسرعة ولكن الاسم ظل على الالسن. ما هم؟ كلهم أمة واحدة على شفرة السيف الغازي وهم في الواقع شعوب وأمم شتى. الملايين الثلاثون الذين كانوا يتوزعون أرض القارة قد يكونون من جذر عرقي واحد هو الجذر المنغولويد ولكن تكويناتهم اللغوية والاجتماعية والبيئية قد قسمتهم الى أكثر من ١٢٠ قوما يتكلمون حوالي ٤٠٠ لغة. تطورهم الحضاري استمر ما بين ١٥ ـ ٢٥ الف سنة قبل أن ينكبوا النكبة الكبرى بوصول كولومبوس والسيوف الاوروبية من ورائه. وكان لتلك الشعوب حضاراتها الباذخة. ثلاث امبراطوريات كبرى كانت على الاقل

ممدودة الجناح والتنظيم والمدن والفكر والجيوش والفن حين وصل الرجل الابيض، الازتيك في المكسيك، والمايا في كولومبيا والانكاس في البيرو. تاريخها هو الوجه الآخر المظلم للقمر، الوجه المجهول منه ولو انه تاريخ النصف الآخر من الانسانية.

في التنظيم الاجتماعي كانت لهم الطبقات والتقاليد الدقيقة والنظام المتطور جدا. في توزيع الثروات وفي الانتاج الاقتصادي. كانت لهم الاقنية تعبر الجبال مئات الاميال، ولهم السدود والجسور والزراعات وأروع الصيغة للذهب والفضة وأنواع النسيج المختلف والاواني الفخاري، وفي الثقافة والعلوم لهم أديانهم وسلاسل الآلهة ولهم أساطير كغيرهم لتفسير الكون والقوى الطبيعية، وقد عرفوا أنواعا من الكتابة التصويرية فنقوشهم لا تزال الى اليوم بين مقروء ومستعجم وثمة مخطوطات أو مجموعات خطية منهم، ولهم معارفهم الطبية الواسعة، منذ عهد قريب نشر كتاب مجموعة نباتات الازتيك في الطب، ولهم نظامهم الحسابي العشريني والحساب بالعقد ووضعوا اشارة للصفر، وأما في النجوم والفلك فقد مشوا في هذا العلم الديني أشواطا هامة، كانوا يسبقون بها أوروبا في عصرهم. التقويم الذي وضعه المايا يعتبر من أكثر التقاويم الفلكية دقة ولا تسأل عن الاعمال الفنية، عن الفعالية البديعية، عن الجمال، الرسم بالرمل واللون الناشف والنحت بالخشب والحجر. الرقص والموسيقى وبخاصة الغناء الصوتي كانت دنياهم الجمالية الكبرى، مشكلتهم الغريبة فقط انهم لم يكونوا يعرفون العجلة ولا استخدام الحيوان. الانسان، الجهد البشري، ظهور الناس وأيديهم وعضلاتهم هي التي كانت

تحمل، تنحت، تبني، تنقل، تنسحق، تصنع كل شيء. حضارتهم حضارة قام بها الانسان وحده. فهل أحدثكم كيف بادت هذه الشعوب المنكودة؟

حسبي من تلك الملحمة المأساوية فصل واحد مسحت امبراطورية الازتيك في المكسيك. عاصمة الازتيك كانت جزيرة في بحيرة. البحرية على ارتفاع أكثر من ٢٠٠٠ متر في أحضان الجبال. قممم كالمردة، بعضها براكين تكسوها الثلوج وبعض صخور تناطح السماء. المدينة كانت بندقية القارة الاميركية بأزقتها المائية وبالاقنية الرجراجة المغلغلة فيها كالشرايين. ثلاثة طرق مستقيمة من الحجارة الضخمة تعوم على اكداس، حجرية مغروسة في الماء مسافة ٣ ـ ٥ كيلومترات وبعرض يكفي لمرور عشرة فرسان كانت تصل الجزيرة بالبر وتلتقي في ساحة مربعة وسط المدينة يقوم فيها القصر الملكي وأعلى الاهرامات اوتومبا المخصصة للاضاحي الالهية، ٣٦٠ الفاً كان سكان هذه المدينة وبيوتها ٦٠ الف بيت. قصر الملك منها مائة غرفة ومائة حمام بالماء الساخن وعشرون بابا له، وقاعة تتسع لثلاثة آلاف زائر ولا تسل عما يضج في جنباته والقاعات من الذهب والخشب المحفور والرخام، والحدائق فيها الوان الزهر والطير والحيوان. الى هذه المدينة اتجه القائد الاسباني كورتيز الغازي الدموي سنة ١٥٢٠، وكان قد قطع مع مجموعته المحدودة من الجند أقسى الدروب الجبلية وعرف رعب الغابات الملتفة وهجمات القبائل وعواصف الريح الصقيعية. حين أطل مع أصحابه على المدينة بعد ١١ أسبوعا من المسير بهت، وبهت أصحابه، كتب بعضهم: أنحن

إيقاظ أم نيام. لم يشاهد انسان، لم يسمع انسان، لم يحلم انسان بشيء يشبه هذا المنظر الذي بدا لنا هذا اليوم من الابراج والمعابد والمباني الذهبية التي تعوم وتتمرى فوق الماء. أما القائد كورتيز فكتب أنها أجمل شيء في الوجود.

قصة الغزو بعد ذلك جرت كما لو كانت مأساة تراجيدية مرعبة. أدَّب كورتيز، القوى التي مر بها وبعضها من الجماعات التي تكره الازتيك. احرق السفن التي جاء بها تماما كما فعل طارق بن زياد. تسلق الدروب الجبلية وسط الاودية والغابات ولكنه حين اقترب من المدينة فوجىء المفاجأة العظمى: جموع من الازتيك تحييه وتحيي أصحابه في الشوارع ومن أسطحة المنازل، وجهاء المدينة بكامل بزاتهم المزركشة بالذهب واقفون لاستقباله وجاء محمل نزل منه الملك موكتي زوما في أبهى حلله وحمل مظلته عدد من النبلاء فقدم وقدموا له الهدايا الرائعة بينما كان اسطول من السفن بالزهور يملأ البحيرة. قال الملك: مولاي لقد جئت تتسلم عرشك، ان شعبك رهن اشارتك وتحت حمايتك. أهلاً بك في مملكتك يا مولاي. كانت ثمة اسطورة في تاريخهم تتحدث عن الاله الابيض الذي سوف يأتي من الشرق ويستلم المملكة. وتلمظ كورتيز وجماعته للغنيمة السهلة. حتى خيولهم تلك الايام فرشت لها الفرش لتنام. أول ما فعله كورتيز انه سجن الملك لينفذ ما يريد من الاوامر عن طريقه. وأحرق سعة ٥٠٠ عربة من أسلحة الازتيك وانكشف تدريجيا لجماعة الازتيك المخدوعين زيف هذا الاله وزيف الاسطورة، واضطر كورتيز ان يغادر المدينة لبعض الحروب ضد بعض منافسيه الاسبان فلما عاد وجد الدنيا

قد انقلبت عليه وعلى جماعته. نهب أصحابه الذهب وقتلوا مجموعات من الازتيك في المعابد وهدموا أنصابهم الضخمة فقامت ثورة قتلت في ليلة واحدة ثلث الاسبان. وحين حاول موكتي زوما الملك تهدئة الثورة رماه الثوار بالحجارة حتى مات وهرب الاسبان الباقون مطرودين خارج المدينة الى الغابات.

وفيما كان كورتيز يهيىء حملة حربية للهجوم على المدينة كان الازتيك ينتخبون ملكا شابا شديد الشجاعة كان كما قال الاسبان أجمل من أن يكون هنديا. جعل شعاره الموت ولا الاستسلام ورمزا لذلك صعدوا بأربعة من الاسرى الاسبان الى أعلى هرم الاضاحي عند مطلع الشمس والتمعت مدية الكاهن الاكبر فوق صدورهم واستخرج القلب ليقدم هدية لاله الشمس.

وضرب كورتيز الحصار بعد أن نظم جنوده والنجدات والسفن. استمرت المعركة ٧٥ يوما وتمسك الازتيك بأرضهم بالايدي والاسنان. أشلاؤهم كانت تلطخ الجدران الحجرية وهم صامدون، دماؤهم تصب في البحيرة وهم صامدون، بيوتهم تخرب بيتا بيتا وهم صامدون. أكلوا لحاء الشجر، اختنق الجو بالجثث المتفسخة. نزلوا ونزل الملك الى السفن يقاتلون ومن سقط منهم في يد الاسبان ذبح، ١٥ الفا ذبحوا بهذه الطريقة وفي مثل هذا اليوم من شهر أغسطس سنة ١٥٢١ سقطت المدينة كانت الامطار الغزيرة كأنما تبكيها حين أسر الملك المغلوب، ويوم أوصلوه الى كورتيز قال لقد بذلت جهدي للدفاع عن بلدي. ولما كنت قد أسرت فهات خنجرك واقتلني. المدينة وراءه كانت مجرد خرائب يتصاعد منها الدخان والنار ورائحة أكثر من ٥٠ الف

جثة متعفنة تملأ حوض البحيرة الجبلي وانتهت مدنية الازتيك الى الابد. ألم يظلم هذا الشعب الذي يسمونه بالهنود الحمر؟

بستان العجوز

سنة ١٩٤٥ خرج عجوز في التاسعة والثمانين من العمر، بعكازه من المحكمة العسكرية الخاصة في باريس تحت الحراسة المشددة وركض الاسلحة والارجل حوله، ولحقته الصحف بعد ساعات بالخبر: «لقد حكم بالاعدام»، وخفف الحكم الى السجن المؤبد في جزيرة «إيو» على الشاطىء الفرنسي المطل على المحيط الاطلسي.

وشهدت جزيرة «إيو» موكب السجين التسعيني يدخل قلعتها وتغلق عليه الابواب بصرير كالنواح.

القلعة كانت هناك منذ العصور الوسطى، تغسل اقدامها بامواج المحيط، وتلتحف بالضباب الرمادي. منذ تلك العصور نسيها التاريخ وها هي ذي تدخله من جديد مع هذا السجين الذي دخلها. صخورها المهترئة بالرطوبة والطحالب ما شعرت بالرجل. ولكن الناس كانوا يستطيعون ان يروا سواده من بعيد وهو يتمشى احيانا فوق الابراج الضبابية العتيقة كأنه شبح قادم من اعماق القرون، ويقف احيانا ليغرق انظاره في المحيط، ليغرق ذكرياته في المحيط، ليغرق مأساته في المحيط، كل انداده

ماتوا، وبقي كجذع شجرة الدلب الدهرية. ليقاسي مع الوحدة والغربة الكاملة، والسجن ما هو اشد من كل ذلك، ليقاسي صورته السوداء لدى من كانوا حتى عهد قريب يعتبرونه بطل فرنسا الكبير.

ست سنوات ظل كذلك حتى جاءه الموت اخيرا وهو في الخامسة والتسعين. وفي حانات الجزيرة كانوا كثيرا ما يتداولون مأساته. وهم ينظرون الى القلعة، وينقسمون فريقين، ويهزون الرؤوس، فرنسا كلها كانت فريقين في شأنه، ولكن الفريق المؤيد له، الراحم له، العاذر له، كان الفريق الأضعف، معظم الفرنسيين كانوا يقفون في الطرف الاخر ويرمون اسمه بالحجارة والاقذار، الرجل هو المارشال بيتان. هل يذكر احد من المارشال بيتان؟

حياته الاولى، منذ ولد سنة ١٨٥٦ حتى اندلعت الحرب العالمية الاولى ١٩١٤، كانت حياة اي عسكري في الجيش الفرنسي، سوى انه كان محبوبا، ذا شعبية بين الجنود الصغار، وانه كان مكروها في القيادات العليا. نظريته في التكتيك العسكري، التي كان يدرسها في الكلية الحربية، كانت مرفوضة، ولهذا تأخر ترفيعه فلم ينل لقب جنرال حتى اندلعت الحرب سنة ١٩١٤ وكان في الثامنة والخمسين، وفي السنتين الاولبين من الحرب، قفز درجات الترفيع قفزا ثلاث مرات. ثم صار المع اسم عسكري في فرنسا بعد المعجزة الحربية التي حققها في معركة فردان سنة ١٩١٦.

كانت فرنسا قد تلقت الضربة الالمانية الساحقة والقاسية

والساخنة سنة ١٩١٤، ولم تستطع ايقاف الجيش الالماني عن الوصول الى باريس الا بافجع الجهد والجَهْد وتحولت الحرب بين الالمان والحلفاء على الجبهة الفرنسية التي كانت تدعى آنذاك «الجبهة الغربية» لدى الالمان و«الشرقية» لدى الفرنسيين الى حرب الخنادق، حفر كل طرف من الطرفين خنادق باتجاه الاخر، تحولت الارض الى خطوط طويلة من الحفر. ومن خلال الحفر، واكوام التراب، وطين الامطار الشتوية، وغبار الصيف كانت النار تندلع دون انقطاع. اشعال لفافة من الدخان كان يكفي لتصيد صاحبها ولاشتداد الهزيمة. مدينة فردان الحصينة كانت ضمن خطوط الخنادق والقلاع في الميدان.

واستهل الالمان سنة ١٩١٦ بهجوم عام في الجبهة الغربية، يقوده ولي العهد الامبراطوري، وغرضه اجتياز الخنادق التي تعفنت والوصول الى باريس، كان محور الهجوم وضربته القاصمة، موجهين الى فردان، وقد كلف الجنرال بيتان الدفاع عنها وايقاف الزحف. كان موقفه العسكري من الناحية العملية ميؤوسا منه. ولكن بيتان عرف كيف يعيد تنظيم جبهته ونظام النقل عليها، وكيف يستخدم مدفعيته الاستخدام الحكيم، وبهذا الشكل صمد، وصمد، كانت المعركة مجزرة بشرية، دامت ثمانية أشهر ما بين فبراير ونوفمبر وتحطمت الهجمات الالمانية المتتالية على الجدار البشري العسكري الذي اقامه بيتان وانتهى الامر. نصف مليون جثة ونصف مليون جريح كانوا على الارض، كانوا حصاد هذه المعركة من الطرفين. ولكن نجح بيتان في ان يمنح جنوده البطولة التي اضحت تاريخية واسطورية وانتصر. واوقف

الزحف الالماني الشرس المستميت بدفاع شرس مستميت من مثله. واضحى بيتان بطلا قوميا، صار اسطورة الشعب. وحين قامت بين الجنود الفرنسيين بعد ذلك بعض التمردات ضد رئيس اركان الجيش لم تجد القيادة من يهدئها سوى تسمية بيتان لهذا المنصب. وبسرعة اعاد الرجل النظام في الجيش بأهون السبل، وتحت اشراف بيتان وبقيادة المارشال فوش القائد العام للجيش الفرنسي حقق الحلفاء الهجوم المنتصر على الالمان سنة ١٩١٨ وانهى هذا الهجوم الحرب العالمية الاولى.

عند توزيع اكاليل الغار في تلك السنة نفسها كان نصيب بيتان ان يصبح مارشال فرنسا، وسمي بعد ذلك نائب رئيس مجلس الحرب والمفتش العام للجيش كله. وتمضي خمس وعشرون سنة بعد ذلك، وتندلع الحرب العالمية الثانية وتنهار الجبهة الفرنسية الانهيار المخزي سنة ١٩٤٠ تاركة على ترابها اكثر من مليون قتيل. ويدخل الالمان باريس، ويحتلون ثلثي فرنسا. فأين بيتان؟

كان في الرابعة والثمانين من العمر. ومع ذلك فقد كان في الحكومة الفرنسية الاخيرة، «حكومة رينو». وكان نائب رئيس الوزراء، فطلبوا اليه ان يؤلف الحكومة، كانوا يستغلون رصيده الشعبي الضخم، ينشرون معركة فردان التي كانت وراء اسمه، يفتشون عن معادل للهزيمة المرة، ومن خلال هذا كله اذاع بيتان بطل فردان على الفرنسيين نداء الاستسلام، في ١٧ يونيو ١٩٤٠ قال بقلب جريح: «أقول لكم اليوم اوقفوا القتال». بعد ذلك وقع وثيقة الهدنة، ثم أجتمع مجلسا النواب والشيوخ في بلدة فيشي التي اتخذت عاصمة موقتة لفرنسا ومنحا بيتان رئاسة الدولة

والسلطة المطلقة في العمل، بعد ٢٤ ساعة من اذاعته لنداء الاستسلام كان جنرال عادي هارب من فرنسا اسمه الجنرال ديغول يذيع من لندن نداء آخر للصمود ويقول: «ان فرنسا خسرت معركة ولكنها لم تخسر الحرب».

وبدأت بذلك مأساة بيتان. كان عليه ان يكون بوجهين: وجه تكتيكي يساير الالمان المحتلين ويقبل ما يريدون وما يدبرون، لانقاذ ما يمكن انقاذه في فرنسا، ووجه وطني يحاول ان يحتفظ بالجسور مع المقاومة الفرنسية الخارجية. قال بيتان للفرنسيين اثر اجتماعه بهتلر في اكتوبر سنة ١٩٤٠: «اني اسلك اليوم طريق التعاون على اساس التمسك بشرف فرنسا، ومن اجل الحفاظ على الوحدة الفرنسية، ان التاريخ سيصدر حكمه علي، كنت في السابق اخاطبكم كأب، اما اليوم فاخاطبكم كقائد، اتبعوني وضعوا ثقتكم في فرنسا الى الابد».

ولكن ديغول كان يقول بدوره ايضا من خارج فرنسا: «اتبعوني». اربع سنوات دام النداءان، وبالرغم من ان بيتان رفض التعاون العسكري مع المانيا ومن انه ارسل في السر مندوبا من قبله الى لندن، وانه قابل الجنرال فرانكو الاسباني واتفق معه على عدم السماح للجيش الالماني بالعبور من اسبانيا، وكان على صداقة وثيقة مع سفير الولايات المتحدة عنده قبل دخولها الحرب، ومن انه منذ سنة ١٩٤٢ قد اضحى رئيسا شكليا للدولة، ومن انه ارسل بعد احتلال الحلفاء لباريس سنة ١٩٤٤ مندوبا الى ديغول لتسليمه السلطة، ومن ان الالمان اعتقلوه بعد ذلك واخذوه منفيا الى «سيغمارينغن» حتى استردته سلطات الحلفاء، رغم كل

ذلك، فقد احيل الشيخ التسعيني للمحاكمة. وضمن جو التحرير الفرنسي ونشوة النصر والغضب الساطع على الالمان والمتعاونين مع الالمان حكم على بيتان بالموت، وخفف الحكم الى السجن المؤبد. كانوا يعدمون فيه التعاون، يعدمون مبدأ مهادنة العدو، حتى ولو كانت فردان وراء هذا المهادن، اربع وثمانون سنة من الخدمة المخلصة الرائعة لفرنسا، محتها اربع سنوات جدلية من التعاون مع الالمان، والملف بعد هذا لا يزال مفتوحا.

والسؤال لا يزال الى اليوم معلقا: هل يستحق بيتان مصيره؟ هل هو مظلوم؟

هتلر، هل ظلموه؟

فتح الملفات المعاصرة، وان كان اصحابها قد دخلوا التاريخ مشى على الشوك والألغام وعلى الجمر احيانا. قضاياها آلامها، اهواؤها، لحومها، لا تزال ساخنة تنزف وتحرق. ومع ذلك فسوف آخذ من جهنم جمرة، واتحدث عن واحد من المغضوب عليهم ومن الضالين: «هتلر»، بلى، هتلر! وقفة من فضلك هنا. لست آتي بهذا الحديث لادافع عن الرجل وعن مذهبه ودنياه العمياء. انا اكره النازية لأني اؤمن بالفكر، اكرهها لأنني اؤمن بالانسان واكرهها ايضا وايضا لاني اكره الظلم. واذا لم اكن مستعدا لان اخون ذاتي، فادافع عن النازية كمذهب فكري سياسي، فإني في الوقت نفسه لست مستعدا لان اخون ذاتي فأقبل الظلم حتى لاعدائي. شق الصدور بالنار واستخراج القلب منها ينتفض كالعصفور اهون عندي من الظلم. ولقد عودت جمجمتي ان تنفتح للرياح الاربعة، عودت فكري ان ينتقل الى الجبهة النقيضة ليفهم وجهة النظر الاخرى. الاحكام الاحادية الجانب ذات عين عوراء وانا اشتهي دوما ان احتضن الحقيقة بألف عين.

بعد هذه الوقفة، هل لنا ان نتحدث دون عقد عن هتلر المظلوم؟ الرجل حتى الثلاثين من عمره سنة ١٩١٩ لم يكن شيئا في حساب الناس ولا التاريخ. كان افضل ما فيه انه يعمل بالرسم والتلوين، دهانا احيانا ومصور جدران او بطاقات احيانا اخرى. في الحرب العالمية الاولى ترقى الى رتبة عريف في الجيش بعد ان جرح مرتين، ويوم انتهت الحرب سنة ١٩١٨ كان في المستشفى افقدته الغازات السامة بصره الى حين، فلما شفي عمل في الشرطة السرية يراقب الشيوعيين. ولم يكن شيئا في الثقافة ولا الفكر ولا السياسة. كل ثقافته قراءات آفاقية، وكل سياسته وفكره هزيمة بلاده في الحرب. كانت الجرح الكبير في صدره. لماذا هزمت المانيا؟ وفي ميونيخ سنة ١٩٢٠ وضع الجواب في خطاب القاه في مشرب للجعة على جماعة من العمال التقى بهم والتفوا حوله، ولم يكن الجواب بدعة من اكتشافه. كان الكثير جدا من الالمان غيره يقولون بالذي قاله يريدون ان يضمدوا الكبرياء الجريح من جهة ويوجدوا كبشا يصبون عليه من جهة اخرى اوزار الهزيمة التي تثقل الكواهل. في رأيهم ورأيه ان العرق الجرماني الالماني عرق متفوق وسبب هزيمته هم الاجانب اليهود، ويجب ان تستعيد المانيا الكبرى مكانتها ومستعمراتها.

بعد ثلاث سنوات كان الكثيرون قد تجاوبوا مع افكار هذا الحزب الصغير الذي سمي بـ «النازي». تجاوبوا لدرجة انه حاول تهيئة انقلاب ضد الحكم وفشل، وسجن هتلر، وفي السجن شرح افكاره الاولى في كتاب «كفاحي» الذي ظل انجيل السياسة الالمانية قرابة ربع قرن. بعد عشر سنوات من ذلك، كان هتلر

مستشار الرايخ الالماني. وبعد ست سنوات اخرى سنة ١٩٣٩ كان يخوض الحرب العالمية الثانية. وفي سنة ١٩٤٥ حين دخل الحلفاء برلين منتصرين اختفى هتلر في ظروف غامضة اشبه بالانتحار. منذ ذلك الوقت دخل اسم هتلر نهائيا في قائمة اعداء العصر والانسان. القوة في سخام المحارق وفي جهنم الاقلام. جعلوه صورة الشيطان الكاريكاتورية، بخصلة شعره المهتزة والشارب المقطوع لاحقوه باللعنة وحجارة الرجم. حملوه دماء الملايين العشرين من القتلى في الحرب، ونفضوا ايديهم يبرأون. حرب القبائل المتمدنة التي يسمونها بالحرب العالمية الثانية كانت همجية كل العصور. الانسان الوحش الكامن وراء جلد الغربي تعرى عليها، افتضح، كلهم افتضحوا وافتضح معهم الكلب الاستعماري الذي يكنون، فراحوا يسترون عريهم الوحشي بهتلر. جعلوه وحده المسؤول عن نكبة الدنيا، وكان الرجل يملك من سوء الحظ ما يكفي لان يخسر الحرب ولأن يحمل كل تلك الاوزار برغمه كعبيد القرون الاولى.

لو تحررت انت وانا قليلا من الرجم الدعائي، لو وقفت انت وانا على الشاطىء الاخر ونظرت ونظرت لاختلف المنظر جدا. الرجل اولا لم يخترع النظرية العرقية الآرية وفكرة النقاء العنصري. ولا ارادة القوة وضرورة فرض هذه الارادة في المجال الدولي. انه ابن الفكر الالماني في القرن الماضي، وهذا القرن والى اليوم ايضا: من هيغل الى فيخت الى نيتشه الى روزمبرغ وفيدر، كان الالمان يقولون بالذي قاله وطبقه هتلر. الذين يحاكمونه انما يحاكمون الفكر الالماني كله. هتلر لم يكن فردا كان امة، ولو لم

يوجد هتلر خبيء في قرارة كل الماني، فهل كان يوجد هتلر؟ وهل كان يصل القمة وبتلك القوة الكاسحة؟ والرجل ثانيا كان همه الاوحد الخلاص من الجرح الالماني من المذلة التي فرضها اصحاب معاهدة فرساي في عماهم السياسي الجشع على المانيا. ذنب هتلر انه احب بلاده حتى الجنون. حقد على الذل وعلى الضعف وعلى اسبابها والجذور. كان همه ان تسترد المانيا قوتها، مجالها الحيوي، مكانها العالمي. ان تقوم الجامعة الالمانية التي طالما تحدث بها المفكرون والسياسيون الالمان. كل عقبة في طريق ذلك يجب ان تسحق، وقد نجح في نقل المانيا الى مستوى القوى العظمى. الذين حاربوه من فرنسيين وروس وانكليز واميركان، ترى الم يكونوا يحملون الحب المجنون نفسه لبلادهم؟ والحقد الاعمى نفسه عليه لانه يعاديها؟ هل حاربوه الا لان مجاله الحيوي اصطدم بمجالاتهم، ولان المصالح التي يبحث عنها لاهله اصطدمت بمصالحهم، ولان رغبته في الهيمنة القارية والعالمية هددت هيمنتهم المستقرة؟ وان تكن هذه الامور جريمة اليسوا في هذه الجريمة سواء؟ اليسوا ايضا بالمجرمين؟ لا تحدثوني عن المبادىء والمثل في السياسة انها مماسح الاقوياء واستار الزينة في اقواس النصر. العلاقات الدولية في عريها الوحشي ليست اكثر من صدام المصالح وتكالب الانياب. قد تهدأ فتسمى سياسة، وقد تسخن لتصبح حربا وقودها الناس والحجارة. لكن من عليها ليسوا بالملائكة وان كانوا بلى الشداد الغلاظ، وفي المسؤولية النهائية اليس يستوي اذن الغالب والمغلوب؟

والرجل، ثالثا، كان من اصحاب الاحلام القومية الكبيرة،

ولكنه لم يكن ابدا من المهووسين ولا المستهترين، اعداؤه كتبوا عنه انه كان ذا مزايا استثنائية في المفاوضة، وعناد في الخطط، ونظر ثاقب وقوة عزم لا تقهر. قالوا: كان يبرهن في مختلف المناسبات على حدس سياسي حقيقي صحيح، وبخاصة في تقدير نفسية الجماعات. الوثائق الالمانية التي وجدت كشفت ان اراء هتلر واحكامه في السياسة العامة كانت احيانا نافذة جدا وصحيحة جدا. هذا بالاضافة الى موهبة خطابية شديدة الجاذبية وقوة في الاقناع وألمعية في التهكم قلما يستطيع الالمان استخدامها. ولكن هتلر في الافكار التي جند لها الالمان وقع من حيث لا يحتسب في مهب القوى الاربع التي تحكم العالم كمردة الاساطير، انتفضت هذه القوى امامه. اثارها كلها في وقت واحد، وحاربته كلها مجتمعة صفا من الجبابرة. تلك خطيئته المميتة وما ظنك برجل يدخل مع الرأسمالية والشيوعية والصهيونية والكاثوليكية المصارعة الحرة في وقت معا. الرأسمالية التي تسمي نفسها بالعالم الحر كان هتلر عدوها الاول لانه كان يعمل على تحطيم القيود التي فرضتها على بلاده. الحلفاء هم الذين سلبوا المانيا مستعمراتها وفرضوا عليها في «معاهدة فرساي» الهزيمة المذلة والغرامات الحربية، واقتطعوا من اراضيها وقيدوا قواها العسكرية. الدولية البولشيفية كانت العدو الثاني لان الشيوعية تقوم على صراع الطبقات، وهتلر جمع الامة الالمانية كتلة واحدة ذات ارادة واحدة، واوقف التحرك الشيوعي في المانيا بالقوة. والكاثوليكية كانت تعمل ضده، انها دوَلة من نوع اخر. الفاتيكان مؤسسة الدين والمال الرهيبة العالمية تقول «ان الجسد تابع للدولة والروح للكنيسة». هتلر رفض ذلك من اساسه كان يقول: «لا شيء من

هذا، ان الانسان كله جسدا وروحا تابع للامة الجرمانية والمجتمع الجرماني والى خارج الابواب بالكنسية والايقونات والمباخر».

واخيرا، الصهيونية، الاخطبوط العالمي الذي نعاني منه ما نعاني، حاربت ولا تزال تحارب هتلر لا لانه اضطهد اليهود، لا، ولكن لكي يزيد في اضطهادهم. بلى، لقد جندت الصهيونية كل اقواها العالمية لكي تزيد في حملة هتلر واضطهاده لليهود، لكي توظف كل ذلك في الدعاية لاهدافها وفي كسب العطف العالمي عليها لابتلاع فلسطين. الوجه الشيطاني لهتلر كان من صنعها ليكون عكاز الشحادة، ليكون اكبر وسائلها في الاستغلال العالمي وفي تمرير الهدف الصهيوني. تلك القوى الاربع هي التي صنعت هتلر البغيض الذي نعرف. واذا كان الرجل ابرع من استخدم الدعاية في الصراع السياسي فقد قتلوه بالسلاح نفسه، وبالاساليب الدعائية التي ابتكرها. كل قوى الجن الدعائية جندت ضد هذا الاسم «هتلر». ترى لو انتهت الحرب العالمية الثانية بغير الذي انتهت اليه، هل كان هتلر في التاريخ ذلك الوجه الشيطاني اللعين؟ اما كان قضاة نورنبرغ الذين حاكموا النازيين كمجرمي حرب يجلسون مكان المتهمين وكان المتهمون يجلسون مكان القضاة؟ لو انتصر الرجل فربما لم يكن في عداد المظلومين، وربما لم تأخذ قضية فلسطين الطريق المأساوي الذي اخذت، ولكنه ربما كان ايضا من كبار الظالمين ولكني على اي حال اشك في ان يكون اشد ظلما واحتقارا للانسان من الظلّام الباقين الذين انتصروا عليه وجثموا على رقاب العالم بالسكاكين والاستغلال الى اليوم!! وعلى اي حال الم يظلم هتلر؟

المبدع المظلوم

كنا في الحمراء، القصر الاعجوبة، خليطا من الناس في رحلة. غرناطة في الخريف ذهب كلها تحت القمم الثلجية وسفوح البنفسج. اما الحمراء فروح وريحان وجنة نعيم. عناق الانوار والافياء، رقص الاقواس والنوافير، الذهب المسفوح على الجدران والنارنج كالسواقي المجدولة، كل ذلك كان سيمفونية تصخب، ترق، تتسلسل، تضج نبكي، تهدل بين العين والكبد. «ولا غالب الا الله» تتردد كاللازمة بين مقطع ومقطع، كنت في صمت مشدوه حزين افتش عن ضفيرة سوداء، عن عين سوداء، عن شمس سوداء، عن أي شريان يلمني حين اطلقت عجوز اميركية سؤالا كالنقيق العالي. سألت الدليل الثرثار: «ولكن من الذي بنى هذه القصور الخيالية؟ احقا هم العرب؟ معقول انهم العرب؟ لم اجد في أي مكان اسماء الفنانين المبدعين الذين صنعوا هذه الاعجوبة. ليس هناك أي توقيع، هل تدلني؟».

ولم يستطع الدليل، على ثرثرته، ان يجيب بما يرضيها وحين قال في غموض سريع: «بلى، ان القصر من آثار العرب، من الاعمال الرائعة لملوك بني الاحمر»، اصرت السائلة ان تعرف.

اسماء الذين صنعوا هذه الاقواس آية، آية، وتلك المقرنصات التي تضج بالنور، وقبائل الزخارف المحيرة ووسوسة المياه في الاقبية.

وما همست شفة بجواب. كنا نسير ولكن شرودي صار شرودين، وكما تنداح الدوائر في لجة الماء يلقى فيه بالحجر اخذ السؤال يتداح في داخلي دوائر، يتفجر بعضها من بعض. وركضت في جبيني الصور ارسالا. لا لعبة الوردّ والظلال في جنان العريف توقفها ولا صياح الرفاق. ثمة فعلا قضية من قضايا الظلم في التاريخ. ومن قضايا الظلم المتمادي الاخرى، هناك قبائل من المبدعين، من الفنانين، من الجنود الصامتين، من البناة، من المبتكرين جاءوا وابدعوا ومضوا، ومضوا ولم يحتفظ التاريخ منهم لا بالاسماء ولا الملامح ولا الظلال. من السواد يخرجون والى السواد يعودون، تماما كعملية الخلق من التراب والى التراب. ولكنهم، فيما بين الحد والحد الآخر، يتألقون كالشهب. يقدمون للانسانية العطاء السخي، يتركون بصماتهم المجهولة في كل جميل وخالد وبطولي. وتنسب اعمالهم الى غيرهم وهم ينظرون، يلتهم اعمالهم تنين دائم الجوع، عتيق الافتراس اسمه الحكام والملوك والاباطرة، تحجب اسماءهم اشباح جبارة، كان لها الامر والنهي وركب المواكب ووضع الكلام على لسان التاريخ. ويقول التاريخ: «بنى الملك قصر كذا. انتصر القائد في معركة كيت. وضع الامبراطور القانون الفلاني»، وانما الذي بنى، هم اولئك العمال الذين كانوا يزحفون كقطار النمل في التراب، وانما انتصر اولئك الذين جعلوا جثثهم جسرا ليعبر الاخرون، وانما ترجم وشرع اولئك الذين اذابتهم الشموع والاسرجة واذابوها،

ليترجموا ويشرعوا واكتفوا بالفتات للعيش، وذهب سيد العشيرة، سواء كان اسمه امبراطورا او ملكا او رئيسا، بسابغ الامجاد.

ودعك من مبتكر النار كيف توقد، ومبدع الحرف خطا يحمل الفكر ومخترع العجلة حركة متصلة. دعك من اولئك الرواد فيما قبل التاريخ وهات من حديث التاريخ. عجائب الدنيا السبع: في القديم كان منها الاهرام فمن ذا الذي هندس اركانها ثم سواها جبالا كثيرة، عديدة هنا وهناك احدها جبل من مليوني حجر ضخم. حجرا على حجر بني، وشقت دهاليزه العتمة حجرا. هل كان خوفو او خفرع او منقرع في كل ذلك اكثر من متفرج مثلي ومثلك؟ ولكن بيده السوط وامامه البناة يأكلون العدس ويزحفون بالصخر فوق الرمل. والجنان المعلقة جنان سميراميس، عجيبة الدنيا الاخرى. هل كانت سميراميس اكثر من غانية ارهقها البطر؟ فالحدائق لوقع قدميها ولما مس العشب والزهر من الاذيال؟ وتدخل بعلبك وتنظر الصخر الجبار قد حفر تزاويق تحسبها وشي الابر. تحسبها دانتيلا صخرية تأكل الصبر، تحسبها كروما ونباتا من النبات قد فاجأته عينا ميدوزا التي تحول كل شيء الى حجر. فجمد مكانه على الافاريز بصمات مبدعها الصبور هناك. ولكن اين توقيعه؟ وما اسمه؟ كذب اباطرة الرومان، لم يبنوا من بعلبك حجرا ولا اداروا زهرة على الصخر. فمن هم اذن اصحاب الازميل المبدع؟ وسد الصين الاعظم، لو رأيته يمتد على رؤوس الجبال مع الغيم افعوانا من جلاميد الصخر، ينبع من حيث لا تدري ويغيب حيث لا تدري. والابراج تركبه هنا وهناك خمسة الاف كيلومتر لو رأيته. اذن

دهشت، حرت حيرة البحتري امام الايوان ليس يدري اصنع انس لجن شيدوه ام صنع جن لانس؟ ومع ذلك فانك في لحظة من لحظات الشفوف الانساني لن ترى فيه جبروت الاباطرة، ولكن آلاف الاجساد والبناة المجهولين الذين دفنوا تحت كل حجرة من حجارته حتى اكتمل. وتلك اللوحات من الفسيفساء الذهبي الذي يستنفد الصبر ويأكل العيون في قبة الصخرة. او في الجامع الاموي او قصر هشام. او في ايا صوفيا او كنيسة رافينا. هل صاغها عبد الملك او الوليد او هشام او جوستنيان؟ ونقول: ترجم المأمون الكتب الفلسفية والعلمية الى العربية، فهو ابو التمازج الثقافي ورمز التطلع العلمي. وما ترجم ولامس كلمة. ولكنهم مئات من المترجمين افنوا الاعمار في صوغ هذا المصطلح وتدبر ذلك المفهوم وتسوية تلك الافكار سنين بعد سنين طويلة. حتى تركوا لنا ذلك التراث. ويكتب المؤرخون بنى المتوكل سامراء قصورها الجامعة والحدائق. ويتكلمون عن مساجد السلاطين ومدارس الملوك والامراء، وعن التكايا والبيمارستانات والقصور التي تزرع الارض العربية الاسلامية بالنور، بالجمال، بالروح البديعية والشعر. اليس البناة المجهولون هم الذين بنوا واهترأت ايديهم بالطين والعرق ثم غابوا في الدهاليز؟ محوا انفسهم بالاقواس المردة، اذابوها في سيمفونية الخطوط واللون والظلال، وجاء الحكام في النهاية فوضعوا تواقيعهم واختامهم على الاعمال؟ وقناة السويس، وقناة بنما، في هذا العصر الحديث، هل بناهما فيردناند دي ليسبس حقا؟ فماذا فعل اذن الآف العمال الذين يعملون، او الذين كانوا يحملون قفاف التراب تحت لهيب الشمس سخرة في سخرة؟ وماذا صنع مئات المهندسين بملايين

الحسابات والارقام التي وضعوا ومحوا على العرق والغبار وحرق الاعصاب؟ واين ذكر الذين ماتوا تحت الردم او لفظوا الانفاس من الجوع والعطش؟ اليس ما يجري في القناة من الماء قد عادله هؤلاء بمثله دما وعرقا حتى جرت القناة؟ ويمر الاسكندر ويوليوس قيصر وجنكيز ونابليون ومونتغمري في التاريخ عباقرة حرب، من حولهم الطبول والبوقات وعلى رؤوسهم اكاليل الغار. اوسمتهم على الصدور اليست من عرق الذين لهثوا حولهم حتى الموت في الميادين؟ اكاليل نابليون اليست من دماء الملايين التي كانت دونه؟ ومن الاشلاء ومن كل بنان خضيب؟ اليس ربع مليون جندي كان ثمن «الغصن الذهبي» الذي اضافه المارشال مونتغمري الى قبعته؟ وغاب الابطال الحقيقيون في العتمة الابدية واحسب ان الشعوب التي تدفع هذه الاثمان الغالية للجزارين الكبار، تجار الحروب، احست اخيرا بمكانها من عملية النصر، بدورها في صياغة الغار. اليس هذا معنى تلك الانصاب التذكارية التي تقام للجندي المجهول بكل مكان والشعلة الخالدة فوق قبره. واكاليل الزهور في كل عيد وموكب؟ ترى لم لا يقام نصب تذكاري مماثل للمبدع المجهول؟ انه على الاقل رمز البناء والحب للانسان، لا رمز للقتل والحرب. اليس المبدع المجهول اكبر المظلومين المنسيين في التاريخ؟!

كافور الذي شوهته القصائد

مسكين كافور، كافور الاخشيدي ابو المسك!

نحن نجرر اسمه في موكب من الغربان والبوم. ننقل سواد لونه الى عهده فهو قطعة من الليل. نجعل الاسم شتيمة... لماذا؟ لان شاعرنا الاثير المتنبي، هذا البوق الدعائي الرهيب، اطلق احرفه كالكلاب تنبح وراءه عبر العصور. وصدقنا تطريب تلك القوافي والى الشيطان بالحقيقة والتاريخ...! اثنتان وعشرون سنة من الحكم الفاضل الطيب محتها بضع قصائد... شوهتها وشوهت وجه كافور الحقيقي، البسته القناع البغيض!.. وضاع كافور التاريخ، غاب وراء القناع، وبقي لنا كافور المتنبي وما ادراك ما كافور المتنبي؟

انه «ابو النتن» بدل ان يكون ابا المسك! وحدث ما شئت بعد ذلك عن صورته المنكرة تارة، الكاريكاتورية تارة اخرى. وحدث ما شئت عن كتلة المخازي التي تحمل اسم كافور».
امينا واخلافا وغدرا وخسة وجبنا؟ اشخصا لحت لي ام مخازيا؟

وحدث عن الشكل الذي يضحك الثكالى:

ومثلك يؤتى من بـلاد بعيـدة ليضحك ربات الخدور البواكيا . .

ويفرش المتنبي لكافور ملاءة الشتيمة بلسان تحسبه الافعوان المسموم :

اني نـزلت بكـذابـين ضيفهم عن القرى وعن الترحال محدود
من كل رخو وكاء البطن منفتق لافي الرجال ولا النسوان معدود
جود الرجال من الايدي وجودهم من اللسان فلا كانوا ولا الجود!
ما كنت احسبني ابقى الى زمن يسيء بي فيه عبد . . . وهو محمود
جوعان يأكل من زادي ويمسكني لكي يقال عظيم القدر مقصودا!
أكلما اغتـال عبد السوء سيده او خـانه فله في مصر تمهيـد؟
صـار الخصي امام الابقـين بها فالحر مستعبد. والعبد معبـود!!

ثم من «اية الطرق يأتي نحوه الكرم»؟ انه :

لا ينجـز الميعـاد في يـومـه ولا يعي مـا قـال في امسـه!
فـلا تـرج الخير عنـد امـرىء مـرت يد النخـاس في رأسه!!

ويستغرب المتنبي ان يخدع كل هذا الناس، بمخلوق ليس اكثر من كركدن او زق رياح :

فقـد ضـل قـوم باصنـامهم واما بـزق ريـاح فـلا!

ولكنه يستدرك فيقول :

وكم ذا بمصر من المضحكـات ولكنـه ضحـك كـالبكـا! . .
بهـا نبـطي من اهـل السواد يـعلم انسـاب اهـل العـلا
واسـود مـشـفـره نـصـفـه يقـال له انت بـدر الدجى! . .

فهل ضل الناس، كل الناس، حقا بهذا الكافور واكتشفه المتنبي وحـده؟ اولا! فاين كـافور الحقيقي من هـذا الكـافـور الشعري الاسود؟ الواقع ان كافور المسكين كان ضحية هذه

الاذاعة المجلجلة التي شكلتها قوافي المتنبي عبر العصور. كافور التاريخ شيء آخر مختلف تماما عن هذا الكافور الذي خلقه شاعرنا المدلل من احقاده وانزل عليه الصواعق!

بلى! كان كافور عبدا اسود خصيا بل كان ايضا قبيح الشكل، ثقيل البدن مثقوب الشفة السفلى.. تلمع عيناه بالبصيص.. ولكن كل عيوبه تنتهي عند هذا الشكل الجسدي الذي شهر به اغرب السير. كانت بلاده مصر والشام الجنوبية تابعة رسميا للعباسيين، ولكنهم ضعفاء في بغداد، في حين يطمع بمصر اعداؤهم الخلفاء الفاطميون الذين قاموا في المغرب. واستطاع كافور بدهائه ان يحتفظ بالعلاقة الطيبة مع الطرفين حتى مات!... بعد موته بسنة واحدة اخذ الفاطميون البلاد.

المتنبي نفسه هو الذي قال:

اذا منعت منك السياسة نفسها فقف وقفة قدامه تتعلم!

والى هذا فقد شدا الكثير من العلم باللغة والادب، وبرع في فنون القتال وانتصر مرات. وهكذا ارتضى الناس طريقته وارتضوه قرابة ربع قرن.

وكان المتنبي اكثر صدقا مع التاريخ حين قال له قبل غضبته الكبرى:

اجفل الناس عن طريق ابي المسك وذلت له رقاب العباد
هذه دولة المكارم والرأفة والمجد والندى والأيادي

وكان الرجل ثانيا: كثير التواضع لم تأخذه العزة بالحكم مرة. ذكروا انه ايام بؤسه لحقه جرب كثير حتى طرده سيده. ومر

بالسوق على طباخ وسأله بعض الطعام فضربه بالمغرفة الحارة على يده حتى احترقت وغشي عليه. واخذه بعض اهل الاحسان فداوى حروقه. ويقولون انه كلما عزت عليه نفسه ذكر ذلك لنفسه وقال: اذكر ضرب المغرفة. وربما ذهب الى السوق وسجد شكرا لله!.. وقد قضى حكمه كله لم يحمل لقبا من القاب الملك. اكتفى بلقب الاستاذ!

وكان الرجل ثالثا كثير التدين، كثير الصدقات، كثير الاحترام لآل البيت عارفا بالناس وباساليب احتوائهم بين اللين والشدة، وبين العطاء والحلم والغضب. وقعت مقرعته مرة في الطريق وهو في موكبه فناوله اياها احد العلويين فكاد يبكي. وقال: ما كنت اظن ان الزمان يبلغني حتى تفعل بي انت مثل هذا. فلما بلغ قصره اعطى العلوي ما في الموكب من مال ومتاع. وكانت قيمته تزيد على خمسة عشرالف دينار!

وذكروا ان السماط المفتوح في بلاطه كان يذبح يوميا مائتين وخمسين خروفا، ومثلها من الاوز وخمسمائة دجاجة، والف طير من الحمام، عدا مائتين وخمسين قربة من الشراب، ومئات الصحون من الحلوى.

وقالوا: انه كان يرسل كل ليلة عيد حمل بغل من المال في صرر، على كل صرة اسم من جعلت له، من بين عالم وزاهد وفقير ومحتاج مستور، ويزيد في عطاء الزهاد والنساك ويطلب منهم الدعاء. ويداوم الجلوس صباحا ومساء لقضاء حوائج الناس. ويتهجد ويمرغ وجهه في السجود قائلا:

اللهم لا تسلط علي مخلوقا...

وما كان كافور ينتظر ان يتسلط عليه المتنبي فيهدم اسمه في العصور. سألوه مرة لم لا يرضي هذا الشاعر ببعض الامارة فقال: يا قوم رجل ادعى النبوة مع خير البشر ﷺ، كيف يوليه كافور امارة؟...

ودفع كافور ثمن هذا الموقف غاليا جدا.. غاليا حتى الظلم القاتل... ترى لو كان كافور يعلم. وهو يدافع المتنبي عن اطماعه، ان حكمه سوف يندثر وتبقى القوافي حية تسعى. تركض ترقص لكل اذن وقلب...

لو عرف اما كان يا ترى غير موقفه؟

بدل ان تقع فيه القوافي الظالمة الى الابد؟...

السلطان الاحمر

السلطان الاحمر! سقط السلطان الاحمر!..

كانت هذه هي الكلمة التي تركض في شوارع استامبول اواخر ابريل/ نيسان ١٩٠٩ وتعبر منها بسرعة البرق الى انحاء الدنيا.. وشيء كتنهد الراحة العميق ينبعث بكل مكان. الى طبقات السماء.

مآذن استامبول الموجعة الرشاقة، قبابها المتهدلة الملتمعة تحت شمس الربيع كالسلاحف المتثائبة، وقصورها الملأى بالخصيان والسراري... وبالاسرار، اسوارها القديمة التي تتمرى، في القرن الذهبي والبوسفور، ومياهها المضطربة بالمراكب وحركة الاشرعة كل اولئك كان هادئا صامتا ولكن زلزلة، كأعنف ما تكون الزلازل كانت تطيح في داخلها بثلاث وثلاثين سنة من التاريخ!

الظل الكبير الرهيب الذي كان يملؤها رعبا وامرا ونهياً سقط مرة واحدة. انكمش الى زنزانة منفى.. ليموت بعد تسع سنوات في النسيان، قصر يلدز او «المابين» هيكل الطغيان الاعظم بدأ

العد التراجعي ليصبح في المستقبل متحفا للسائحين...

لقد انهارت سلطنة السلطان عبد الحميد الثاني!..

ثار عليه جماعة الاتحاد والترقي باسم الحرية والدستور بعد ان راوغهم وراوغوه.. وحين دخل محمود شوكت باشا البغدادي بالجيش الى استامبول، ضربت اعناق المتمشيخين للسياسة لا للدين، ونفى الفاً وخمسمائة من الحاشية، وخلع السلطان بفتوى من شيخ الاسلام تتهمه بقتل النفس التي حرم الله الا بالحق، وبسحق الابرياء، وبالتعذيب السادي، ومخالفة الشرع واحراق كتب الاسلام والاسراف في مال الامة!!..

وسجل اسم عبد الحميد نهائيا في التاريخ بوصفه سلطان الارهاب والقمع والطغيان. وسالت المطابع كتبا ومقالات وقصصا تصف ارهابه الاسطوري. تتحدث عن جوع اسماك البوسفور من بعده الى لحم البشر، تحكي الحكايات عن فجوره الخيالي المجنون، عن جواسيسه، عن المعذبين في سجونه، الابدية، عن الدماء التي ذبح... صارت «الحميدية» مذهبا من مذاهب الطغيان السياسي، وصارت صورة ذلك السلطان بطربوشه المتهدل وعينيه الصقريتين نسخة من صور الشياطين!..

كرس الرجل فرعونا آخر! وحين تقع البقرة تكثر فيها السكاكين.

فهل كان عبد الحميد حقا صاحب تلك الصورة؟ ألم يكن عبد الحميد الظالم عبد الحميد المظلوم ايضا؟..

الحقيقة ليست دوما ذات وجه واحد. ان الوجه الاخر لقطعة

النقود هو ايضا جزء منها ومن حقيقتها. انه الجانب المكمل الذي لا تتم الصورة الا به.. والوجه الاخر لمن سمي «بالسلطان الاحمر» فيه شيء اخر مختلف كل الاختلاف عن الصورة ذات الجانب الوحيد التي اعطيت له حين سقط انقاضا سقوط الهياكل الضخمة!

سنون طويلة جدا مضت قبل ان يتصدى احد لرسم الصورة الاخرى. وفي الصورة الاخرى حقائق اخرى تجعله الزعيم المسلم الداهية:

- فيها ان عبد الحميد عاش الفترة التي بلغ فيها الشرس الاستعماري الغربي اوجه. نوع من الكلب اصاب الرأسمالية الغربية في تلك الايام فاقبلت تلتهم افريقيا وآسيا قطعة قطعة، واراد عبد الحميد ان يحمي الامبراطورية العثمانية من النواجد المشرعة. كان الغربيون يسمونها «الرجل المريض» ليبرروا تقاسمها فأعلن عبد الحميد في وجههم اشجع سلاح ذكي دفاعي: اعلن سياسة الجامعة الاسلامية. احيا في شخصه الخلافة التي كانت قد دثرت منذ قرون، اعطي البلاد الاسلامية كلها رأسا للمقاومة، وكيانا شموليا واسعا يعوم فيه تلك البلاد بوصفها كتلة واحدة ضد الاطماع الاستعمارية، واتخذ لهذه السياسة كل عدتها: من معهد ديني لتخريج الدعاة، واكرام للعلماء، ورعاية القوميات الاسلامية المختلفة، واستثمار لدعوات الجهاد، ودعوات النهضة الاسلامية، وتنظيم للجيش.. واستغلال لخلاف الدول الغربية لدفعهم عن الدولة، ورفض للقروض منهم.

- وفي الصورة ان الرجل كان كثير الورع والتدين، كثير

الصدقات، كثير الاكرام للوعاظ ورجال الدين، وقد انشأ «الحزب المحمدي» ليقف ضد الافكار الغربية الغازية، وكان يكره اهراق الدماء وابطل الحكم بالقتل فجزاء القاتل عنده السجن المؤبد.

- وفي الصورة ايضا انه مد الخطوط الحديدية في البلاد فما في بلاد الشام اليوم والعراق والحجاز من هذه الخطوط فهو ابن عهده. ربط العاصمة استامبول بالبصرة والخليج من جهة كما ربطها بالحرمين الشريفين عبر دمشق..

- وفي الصورة ايضا وايضا انه نشر الامن في البلاد، وقطع دابر الاشقياء، ونظم طرق المواصلات البرية والبحرية، فأنعش الحياة الاقتصادية رغم ما اصابها من جمود بافتتاح قناة السويس!..

- وفي الصورة الى هذا وذاك انه رفض مسايرة الصهيونية، رفض ضغوطها واغراءاتها، ورفض تسربها الى فلسطين.

- وفي الصورة بعد هذا كله انه عرف كيف يسكت الاعلام الغربي بالمال، ويكسب سفراء الاجانب وزوجاتهم بالرشوة والهدايا والاوسمة!..

- وفي الصورة اخيرا ان بلاء عبد الحميد انما كان من قطعان المتزلفين حوله جماعة «ايوات افندم» الذين خدعوه! ومن المجموعة الماسونية التي عملت ضده، ومن طائفة الدونمة اليهودية الاصل التي كانت نواة اعدائه.. فهو اذن الضحية لا الطاغية.. واذا كان له جيش من الجواسيس فلان هؤلاء الاعداء كانوا سادة المكر والتآمر.. ولا يقوم للمكر الا مكر من مثله.

على ان صورة عبد الحميد مع كل اولئك.. تظل تهتز وتتأرجح وتظل موضع الجدل. ذلك ان ظلم الشعوب يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب.. وقد ضاعت حسنات الرجل امام سيل المظالم التي اقترف.

وبقي السؤال معلقا: هل عبد الحميد ظالم أم مظلوم؟

لدى الله تعالى: «الحسنات يذهبن السيئات» أما لدى الناس بالعكس فالسيئة هي الابقى على ما يبدو.

ويتساءل الاحرار: هل كثير على من كان طاغية الناس، وجزار الاحرار ثلاثا وثلاثين سنة ان يوضع، مهما كان في كفته الاخرى من حسنة، في قائمة الظلام الطغاة.. والى الابد؟

العرب آخر المظلومين

اطياف المسحوقين بالظلم لا تنتهي. الوان شتى منهم مرت في هذه السلسلة. فيهم الملوك وفيهم بعض الحيوان، وفيهم شعوب مندثرة واخرى على الطريق، على اننا لم نعرض بعد لآخر هذه السلسلة السوداء. انهم نحن.. العرب، ولعل هذه السلسلة كلها لم تكتب الا لتقول هذه الكلمة. والا لتقول ان ما يكتبه الناس في التاريخ هو الناس وليس التاريخ. ونحن في جملة من كتب عليهم الناس في هذا العصر ان يحشروا بين المظلومين.

اعرف ان ظلال الغضب او الرفض تطل على الاعين لهذا الوصف، مع ذلك ـ ولنعترف بهذا ـ فنحن آخر سلسلة المظلومين في التاريخ.

الشعوب كالافراد يريحها ان تجد «مزبلة» تلقي عليها باقذارها وقد مر في هذه المزبلة اليهود والغجر والهنود الحمر. وحذار انهم يحاولون حشرنا فيها. ولندرك هذا جيدا لنصفع به العالم كله. دع عنك العزة القومية فهي كالسكاكين تنغرز في اللحم والاضلاع. ودع مواقف المجاملة التي يلقاك بها الاجنبي احيانا في بلدك. ودع ما كتبه المستر X والمستر Z في مديح العرب والاسلام وانظر

السم الذي تبثه يوميا ساقيات السم، وسائل الاتصال والاعلام! وانظر الكتب التي تصدر بمئات الملايين تؤصل هذا الظلم. وانظر المؤامرات التي تدبر بين الشركات (المتعددة الجنسية) واجهزة السياسة لامتصاص البترول والاموال والرجال وسحق آخر مقاومة لك بالارجل، او انظر جيوش التبشير والاقتطاع التي تطوق الوطن العربي وتأكل اطرافه وقلبه او انظر اخيرا الينا نحن كيف يلتهم بعضنا بعضا.. ارأيت القطط العمياء الجائعة؟! علينا ان ندافع وظهرنا الى الحائط!

ليس على ارض الله، في هذا القرن العشرين، شعب يحمل عليه من الاتهامات ما يحمل علينا. نقطة لقاء كل احقاد العالمين. وكل حذر العالمين، وكل استهانة العالمين اصبحنا. لا البرازيلي متهم ولا الصيني بالمريب ولا الكوري ينظر اليه بحذر ولا ابن زامبيا ارهابي ولا بلاد واق الواق، وحدك انت المريب المتعصب الحقود القاتل... انت عربي.

وقد تبدلت القيم. حل العربي محل اليهودي في سلم الشعوب العنصري.. قضيتك لا تعالج على مستوى قيم الحق والعدالة والمساواة. انها ادوات الزينة للاطماع الانسانية. تخطىء حين تتحدث بذلك. انها تعالج على مستوى آخر مختلف من القيم: القوة. هذا هو منطق العصر الاميركي. ارأيت كيف يصطرع اثنان في الافلام الاميركية والناس حولهم يتفرجون؟ ارأيت كيف يكون الحق مع من يطلق الرصاصة الاولى او من يضرب الضربة القاضية - هذه هي القيمة الانسانية اليوم ولكن من ذا الذي يسمع ويعي؟

ان تفجر البترول نهبوه. وان زادوا هم اسعاره اتهموك. وان سرقوا بعد ذلك ثمنه استكثروا عليك الفتات الاستهلاكي. وان اخطأ عربي في وكر قمار - وفيه مئات غيره - صرنا جميعا المقامرين الاغبياء... ويعيشون في ارضك كيف شاؤوا فان ثرت تدفع عن ارضك وقمحك فانت فوضوي احمر. وان طعنت فردا ذبح اولادك، كنت الارهابي اللعين وحكمت بالف سنة من الاشغال الشاقة او سلطت على بلادك مدافع الاسطول او حوكمت المحاكمة الطنانة الرنانة... وان تقدمت بجوازك في مطاراتهم، مر الجميع وبقيت وحدك تنتظر... تنتظر ان يمر اسمك على كل كمبيوترات العالم لعل واحداً منها يصطادك!
الست العربي المريب؟

العرب اليوم في حالة حصار. كل القوى تحاصرهم وبانفسهم يقبلون هذا الحصار وبأيديهم ينسجون قضبانه وجدرانه. لا تسأل عن السبب، تتعقد امامك الاسباب ويلتبس بعضها في بعض:

● الصهيونية المعششة في وسائل الاتصال تتكفل بالتعبئة العامة. تمون السوق بالمثير الطريف: فيلم هنا. مسلسل هناك. رسامو كاريكاتور يرسمون الجمل العربي. كتاب تشويه يمول. فضائح تفبرك لتنزل السوق على انها حقائق. روايات تحريض. تحقيقات صحفية.... سيل عرم من كل شيء يذهب بالآلاف من سد مأرب وغير مأرب.

● اسلامك محسوب عليك. صحيح ان هناك بوذيين وبراهيميين ووثنيين ومن لا يؤمنون بدين ولكن الاسلام في نظرهم هو العدو. انه ليس بعقيدة صالحة الا عند الاستغلال في

التفرقة والطائفية!

● ضعفك الحضاري يجب ان تدفع ثمنه فلست تصنع السلاح. وانت اعجز ان تنساح في الفضاء ولو ضربت رأسك بالف حائط. وانت لا تملك المصانع المعقدة الضخمة ولا تفهمها وانت حتى في طعامك ولباسك ومتعتك عالة على الجنس المتفوق!!

● ثم انك العربي الذي يقيم استراتيجيا وجغرافيا في مواجهة الغرب. وبالقرب منه. وقد حاربه قرونا وحاربه الغرب قرونا، بسبب هذا القرب، ورواسب هذه الحروب ما تزال في دماء الغرب المسيطر، لاسيما وان لديك البترول وقد تجرأت مرة على اشهاره كسلاح ولديك القوى البشرية فيجب ان ينزع فتيلها الذي قد يشتعل ولديك الثروات فيجب ان تذوب وترجع الى شحاذة القروض! وهكذا تقاد ضدك حروب التخليف الاجباري في حين يشنعون عليك بالتخلف!!

العقد التي تتحول الى استراتيجيات لا يعجزك ان تراها في الوجوه المقشرة الصفراء والعيون التي ازرقت من اللؤم، وفي التصرفات «طلعها كأنه رؤوس الشياطين». بماذا تقف امامهم؟ بقيمك؟ بئس الموقف. ان لهم القيم النقيضة تماما. كرمك عندهم تبذير سخيف، تضحيتك سذاجة وهبل، عفاف امرأتك تخلف يضحكون من رموزه. مثلك الروحية تعصب اعمى وضيق افق... بحضارتك؟ انها للمتاحف الانثروبولوجية! بتاريخك الماضي؟ ومن يبيعك به رغيف خبز والكل ينظر الى المستقبل؟ بشهدائك؟ حتى الشهداء قبلنا ان نسميهم ارهابيين!!

متى ترى يفتح مارد الخدر عينيه لكي لا يكون آخر المظلومين!

الفلسطيني الذي في القاع

كالخيول المجنونة يركضون بسلاحهم من باب لآخر...

كعدوى الوباء يطاردون...

كظلال الشيطان يتهمون... ومأساتهم تدور كحجر الطواحين حول ذاتها.

تسحقهم وتدور...

ولا تسأل شفة شفة اخرى: من هؤلاء؟...

الكل يعرفهم بسيماهم: فلسطينيون!!

وتبلغ مأساة الظلم هنا اوجها الشيطاني.

حين تكون عربيا فلسطينيا فانك في البؤرة من جهنم. كل الاحقاد الاجنبية والعربية معك هناك بحارا من اللهب.

اللحوم كلها طرية على القوارض اما لحم الفلسطيني فهو لحم السوق المباح للجميع. ولا تسأل لماذا؟ ربما لان القيم الانسانية لا تزال تصرخ فيه. لا يزال بشفة مثقوبة وجسد مثقوب وارض مثقوبة شاهدا على المأساة! والوجع صار في العظام!...

بين الفلسطينيين: الليل وحده يتجول بعيون عمياء! وفي الظلمة تستوي الابعاد ويصبح لكل شيء لون واحد... وحدها الخفافيش مصاصة الدماء! والافاعي تتحرك في الليل. وحدهم اللصوص يرتعون! ويصطدم الفلسطيني بالفلسطيني ويختصمان ويقتتلان... ثمانية فصائل - عشر بنادق - خمسون رأيا وطريقا ولونا... بعد حرب سنة ١٩٤٨ كان الناس يتساءلون لماذا انهزم العرب وهم سبع دول؟ وكان الجواب: لانهم سبع دول. ترى اما آن للفلسطيني الظالم لنفسه ان يفهم الدرس؟ اما آن ان يعرف ان اسم اسرائيل - كما يزعمون - انما صيغ من اوائل اسماء هذه الدول (١)؟

وكما تصفر اوراق الكروم وتتساقط ثم تتجدد كذلك يسقط الشهداء فوجا بعد فوج ويتحول كل منزل ينزله الفلسطيني الى مقبرة من نار. فحيثما وجدت بصمة قدم محروقة على الارض عرفت ان من هنا مر فلسطيني! ولكن متى تتوحد الصفوف ومتى يرمي الجميع من بندقية واحدة؟ متى يخجل امثال ذلك الفصيل الذي يقدم يوم الخروج من بيروت قائمة برجاله فاذا بهم ٦٢ شخصا فقط بمن فيهم كل العاملين بالخدمات من غير العرب؟... متى يغلقون دكانهم؟ والالقاب التي يمرجحونها على الورق؟ الف خنجر في هذا القلب المرزأ. الف حريق يلتهمه، الف ثقب ينفجر فيه لكن القلب مع ذلك يبقى على النبض... وتنتصر الحياة! متى يرفع الجميع هذا القلب الواحد الى اعلى... الى اعلى بقلب واحد؟...

واهلهم العرب الا يظلمونهم؟

وظلم ذوي القربى اشد مضاضة على النفس من وقع الحسام المهند!

لهذا الظلم الف سبب والف طريق.. على ان اهمها انهم نشاز على السكون المرين! لانهم يستعملون الرصاصة في زمن الصمت الاكبر لانهم يصرخون والآخرون «صم بكم عمي فهم لا يعقلون» ولا يبصرون. نجحت القوى المسيطرة في ترويض رعاياها. في نزع الالسنة وفقء العيون ولكن الفلسطيني لا نظام يضبط ايقاعه فتكفلت به بعض الانظمة. بحار اللهب تنطفىء في المستنقعات الواسعة. تغرق، تنتحر. في حين تشرب الشمس الاصوات الناصعة. وعلى القمم آلهة نحاسية ترن ترن! وبطونها تقرقر مثل النراجيل في الفراغ، مر عمر كامل من الاسى، مرت اربعون سنة على المأساة، مرت اثنتان وعشرون سنة بندقيتهم في ايديهم يبحثون عن فيء شجرة تحت شمس فلسطين، فلا يجدون سوى حفرة تحت المخيم المحروق هي المأوى الاخير! اهم المنبوذون الجدد في عصر المساواة والحرية وحقوق الانسان؟

اكلوا الزقوم والسحت. والجأهم أكلة لحومهم الى ان يسألوا اهل الدين: هل يفترسون الجثث؟ لا لا تسألوا احدا ولو اكلوا لحومكم. اعرف انه اليأس المملوء يأسا. ولكن مرة اخرى لا والف لا! كل التهم تحملونها على اكتافكم وهناً على وهن، ولم يبق الا أكل لحم البشر!!

أعرف أنهم لم يتركوا شبرا زرعتم به البنفسج والخبيزة الا زرعوا فيه قنبلة. لم يتركوا طفلا الا قصفوه، من وحوش الجو ووحوش الارض. لم يتركوا املا الا الموت (و«امل» هي الموت).

ومع ذلك. لا! لقد ضل من يتصور ان ذلك يحرك الاصن
المتاجرة بالجثث، سيبقى «كل شيء هادئا على الجبهة الغربي
والجبهة الشرقية، وفي اليمين واليسار ولدى الصامدي
والمستسلمين... و«كل شيء على ما يرام يا سيدتي المركيزة
ولن يبقى الا الاتهام الوحشي. ولن تقوموا له.

لقد كتب... الفلسطينيون في قضيتهم ما يوازي عدة قرو
من المطر واطنانا من خبز الشهادة. ولكن احدا لا يجرؤ ان يق
ما كتبوا! تحولت البلاد كلها الى حظيرة نعاج لاهليها! او معسك
اعتقال وصار الفلسطيني التائه هو الرعب الوحيد. هو الوب
الذي يجب ان يكافح وهو الضمير الذي يمزقنا صارخا ويجب ا
يسكت... ولكن كيف تدافع عن نفسك وانت تنتحر؟ كيف
تدافع عن دمك في (بير زيت) وانت تسفحه في تل الزع
وشاتيلا؟ ترى اليس يخطىء من يظن ان اغتيال الفلسطيني اغتيا
لفرد ولا يمكن ان يكون اغتيالا للقضية؟ متى يفهمون ان الارض
وما عليها اوسع من ان تبتلعها ابواق الدعاية؟ وسوف تظل تحو
وتحوم كأشباح الانتقام؟...

اثنان لا يتهادنان دقيقة.. شبح الضحية والضمير المجر

(١) الاسم للمفارقة يمكن ان يتكون من: Israel,
aq, Syria, Roy. of Jor, Arabia, Egypt, Lebanon
وهي مفارقة سجلها الصهيونيون.

تحدي الظلم

القضية الفلسطينية لا تزال كالنار تحرق من يحملها!

وبقدر ماتحملها القوى السياسية والنظم خارج اطارها لتصبح قضية مفاوضات بالقدر نفسه تغلغل في الضمائر كالجرح الناغر لا اندمال له ولا غفران لمن يتنكر له.

العد التنازلي في القضية بدأ منذ زمن طويل... طويل...

كانت فلسطين قضية البلاد العربية كلها قبل سنة ١٩٤٨ طالبت يومذاك بكل فلسطين...

ثم كانت قضية البلاد التي حولها سنة ١٩٦٧ طالبت ببعض فلسطين...

ثم صارت قضية أهلها وحدهم وطلبوا مكاناً على أرض فلسطين...

ثم... أصبحت تسوية سياسية على مائدة مفاوضات... في حين صرنا نقتل الفلسطيني بأيدينا لأنه صورة ضمائرنا ولأنه يحمل قضية معه كالدمل الموجع لاينسى ولا يسمح للآخرين بالنسيان...

الفلسطيني الذي كان الجرح غدا المشكلة:

- مشكلة للاسرائيلي الذي لايستطيع ابادته ولا يحتمل وجوده، فهو ينبع له في كل مكان وفي اللامكان... حتى في الأحلام كالكابوس.
- مشكلة للغطرسة الأميركية التي استأجرت اسرائيل قاعدة أميركية وحاملة طائرات تستخدمها في ((حرب التخليف)) التي تقودها ضد العرب.

- مشكلة أمام ذاته: من هذا؟ مناضل ويسمونه بالارهابي عربي ويعزل بأنه فلسطيني. انسان ويطارد بكل قوى الأرض!...
اجمعوا الفلسطينيين في ((سلة)) وارموهم في البحر فهل ينهي ذلك القضية؟ هل يفتح ذلك طريق ((السلام)) الذي يلهثون حوله؟
((الفلسطينية)) لم تعد صفة لأهل فلسطين العرب لقد غدت مذهباً في (الشهادة) لوجه الله والحق. غدت عاصفة تنفجر في صدر كل عربي.

والانسانية العمياء؟ ماذا تنتظر منها غير الظلم الأعمى؟
من حق اليهودي أن لاينسى أنه اضطهد وأن لايدع أحداً ينسى اضطهاده. عشرون مليون روسي التهمتهم الحرب العالمية الثانية لايذكرهم أحد. وحدهم يهود اوشوتيز يجب أن يذكروا كضحايا لتلك الحرب! الفرنسيون، البولونيون، الرومان، التشيك، الألبان،

المغاربة، السنغال، الماليزيون، أهل الفلبين، الأندونيسيون كلهم ذبحوا واضطهدوا. وحدهم اليهود يجب أن يذكروا كضحايا للانسانية! اللاسامية هي الجريمة الانسانية الكبرى. أما التعصب العرقي اليهودي الذي يرفض ابن المسيحية من يهودي فأمر طبيعي. ولئلا ينسى اليهود فإن لهم الحق في محاكمة البشر جميعاً وليس فقط تلك السلسلة من ايخمان إلى ديمغانغوك إلى أن تثبت براءتهم من بغض اليهود! ولئلا ينسى اليهود منحوا ثلاث مرات جائزة نوبل. نالها آغنون وبيغن وفايزل...

أما العربي الوحيد الذي نالها فنالها لأنه نسي... لأنه نسي الحق والضحايا والعدل في الأرض وفي تقرير المصير لشعبه... ونالها مناصفة مع ارهابي يهودي!! انسانية ((الغرب)) تعمل كل شيء ضد خطر النسيان لدى اليهود وتعمل كل شيء ضد خطر التذكر لدى العرب... وتعمل المستحيل لنقل الارهاب من تاريخ بيغن وشامير والباسه لعرفات ومجموعة ((الآباء)) الباقين...

وتستمر السنوات في التوالي لا النشيد داخل المخيمات ينتحر ولا ملحمة القتل المزدوجة تنتهي. ويتوالد المظلومون ويطعمون الأفواه الجائعة جوعاً وتذكراً كما يطعمون الأحقاد الجائعة أجساداً وأملاً.

يحرقون المعتصم وأبا تمام وملحمة زبطرة كلها على فوهة رشاش وأمام جبن قناص، ليس ثمة قبر يتسع لكل تلك الأجساد، يلتهمها، يسكتها، يغيبها مرة واحدة إلى الأبد. ولأن الصراخ ضمن أجسادنا فنحن لانستطيع الفرار منه... إنه يعوي في الانساغ والشرايين لأن للمذلة ألف شكل وأما الموت فله شكل واحد وقد اختاروا الموت...

وتدوس القدم العسكرية الوحشية على الأعناق تدوس والأنفاس تحشرج ... تحشرج ... تحشـ ...

ولن ينتهي الظلم أبداً ولكن النضال ضده لن ينتهي أيضاً إلى الأبد.

وصبراً آل ((ياسر)) على الظالمين. إن موعدهم الصبح ((أليس الصبح بقريب))؟...

وريث ملوك كنده

أفغانستان . . بلد على الألسنة اليوم . ويحدثونك عن الإسلام فيه وعن شعبه العصي عصيان جباله المردة . فهل أحدثك حديثاً من ذكريات الإسلام الأولى في ذلك البلد؟ عن فصل من فصولها المأسوية جرى مع وريث ملوك كندة : عبدالرحمن بن الأشعث .

المسرح الأرضي هناك مايزال إلى اليوم على حاله . وهل يتغير المسرح الأرضي؟ منخفض سجستان السهلي في الغرب بأنهاره وبحيرته . فإذا جاوزته انتصبت أمامك الجبال جدراناً بعد جدران وقمماً لزئير الرياح وأمواجاً من الصخر الأبي اللانهائي تكاد تحسب معها أن الدنيا قد حالت صخوراً تتعمم بالغيم ودوياناً ضيقة كأنما شقتها السكاكين في الصخر، قد أكلت الأنهار والمياه أعماقها البعيدة فهي رعب الصدى ورعب الطير معاً . سفوحها الأولى للعنب والجوز والفستق والحور وأشجار الدلب الدائم الخضرة ، أما الأعالي فللصنوبر والبلوط والكروم البرية واللبلاب والزيتون البري والعرعر والياسمين والورد أيضاً . ولاتسل عن القمم . القمم فيما وراء أربعة آلاف وخمسة آلاف متر هي ملك العواصف الثلجية المرعبة والبرد المحرق وصراخ الجن . . وتظل ترتفع ، ترتفع حتى تصل هضبة (بامير) هضبة الدنيا الكبرى وسقف العالم! . إنها فوق خمسة آلاف متر! .

في حنايا هذه الجبال تقع كابول. . العاصمة اليوم والعاصمة في العهد الإسلامي الأول على السواء. يوم وصل الفاتحون المسلمون، أيام عثمان بن عفان، أرض سجستان ما توقفوا أمام تلك الجدران الجبلية.اقتحموها.اقتحمها عبدالرحمن بن سمرة حتى وصل كابول، وخرب في بلدة الرخج صنمها الذهبي الذي كانت عيناه من الياقوت الأحمر، فالبلاد كانت على البوذية وإن كانت الطبقة الحاكمة من البراهميين. وما استطاع الفاتحون تثبيت سنابكهم في الجبال. وما كان المسلمون في العدد ولا في العدة بالذين يستطيعون فرض أنفسهم فتراجعوا إلى السهول.

تكرر الأمر كرة أخرى أيام معاوية. وفي هذه المرة أسر الشاه نفسه وهو من أسرة كشان شاهى. ولكنه تخلص من الأسر بالنطق بالشهادتين وبدفع بعض الإتاوات. وتكرر الأمر كرة ثالثة أوائل أيام الحجاج. كان الحجاج مصراً على دفع حدود الإسلام الشرقية إلى الشرق. ولكن الحملة هذه المرة كانت كارثة! الأرض حاربت مع أصحابها، وتمزقت حملة الحجاج على الصخور والوديان بالكمائن المنصوبة وأسر قائدها عبيدالله بن أبي بكرة فاضطر أن يفدي نفسه وأسرى جيشه بسبعمائة ألف درهم!

وهنا يدخل عبدالرحمن بن الأشعث، الأمير الكندي مسرح الأحداث، ويأتي دوره.

الهزيمة هزت الحجاج هزاً، إنه لا يستطيع أن يترك الحدود الشرقية نهباً لرتبيل كشان شاهى يلعب بها كما شاء. الجيش الذي أعده للثأر سمي في التاريخ: جيش الطواويس لكثرة ما أنفق الحجاج في تجهيزه، وفي إغراقه بالسلاح والعدة. كان فتنة المصرين: البصرة والكوفة حين تحرك بأربعين ألف مقاتل.

الرجل الذي إختاره الحجاج لقيادة حملة الثأر كان عبدالرحمن بن الأشعث. وكان هو نفسه طاووساً من الطواويس. يصفونه بأنه كان معجباً بنفسه. ذا نخوة وأبهة. ولا يرى أميراً فوقه! فوراءه نسبه العريق في ملوك كندة، وزعامته لقبيلته الكبرى القوية وشجاعته المشهودة عند النزال.

وعلى الرغم من أن الحجاج كان يبغض فيه غطرسته واعتداده بنفسه وقد قال مرة عنه: «انظروا إلى مشية المقيت. والله لهممت أن أضرب عنقه» إلا إنه لم يجد أفضل منه لمثل تلك المهمة الصعبة، مهمة تثبيت أقدام الإسلام حتى كابول!..

ومضى عبدالرحمن بالجيش. وضع خطته العسكرية على أساس السير الحذر الثابت في وقت معاً. لا يأتي حصناً إلا خلف فيه قائداً من المسلمين، ولا يتقدم خطوة إلا أقام العمال ونظم أعمال البريد والمراقبة فوق الجبال وعلى الشعاب وربط الحاميات بعضها ببعض. وحين أدركه الشتاء توقف. قال لجيشه: نتوقف حتى نجبي البلاد ونعرفها ويجترىء المسلمون على طرقها.

كانت الخطة حكيمة جداً. لكنها لم تعجب الحجاج فقد كان تواقاً إلى نصر سريع يمحو الهزيمة المرة السابقة. وأصر ابن الأشعث على خطته وأصر الحجاج.. وانفجرت الأزمة بين الاثنين حين أرسل الحجاج كتاباً يتهم فيه ابن الأشعث بالجبن والضعف والتوانى في دماء المسلمين. وجن جنون الأمير العتيق المنصرف بكل روحه للجهاد، والمؤمن بسلامة خططه. كان الكتاب جرحاً على كرامته. طعنة للعنفوان والايمان. وجمع الجند فبايعوه على العودة إلى العراق وخلع الحجاج!.

وحين تحرك عائداً بعد مهادنة رتبيل، انضمت إليه قوات من

الحاميات الأخرى بعد قوات. وقبل أن يصل العراق كانت جموعه كافية لاغرائه لا بخلع الحجاج فقط ولكن بخلع الخليفة عبدالملك بن مروان الذي يؤيده!.

وأعلن ابن الأشعث خلع الخليفة وتلقب بناصر المؤمنين. وكان ثم نبؤة بين الناس تنتظر ظهور رجل من قحطان ينقذ الناس فتسمى ابن الأشعث بالقحطاني أيضاً. وبايعته قواته ـ وكلها عراقية ـ على كتاب الله وسنة نبيه وخلع أئمة الضلالة وجهاد المحلين. . كل غضب العراق على بني أمية تجمع في حركة ابن الأشعث.

وهزمت جيوش الحجاج الواحد بعد الآخر أمام هذا الثائر الذي ما لبث أن دخل البصرة. . وراحت طلبات الاستنجاد من الحجاج تركض إلى الشام واحداً بعد الآخر. الهزائم توالت عليه لدرجة أن عبدالملك بن مروان نفسه بعث يفاوض ابن الأشعث على خلع الحجاج وتعيينه مدى الحياة على أي بلد يريد في العراق! السيوف التي يقودها ابن الأشعث كانت أقسى تهديد واجهه العرش في الشام. لقد امتدت الحركة الانقلابية ثلاث سنوات وهي كل يوم في اشتداد.

وكاد الثائر يقبل. ولكن أهل العراق رفضوا فاضطر لقبول المعركة التي دامت ثلاثة أشهر. كانت في دير الجماجم بالعراق وكانت كاسمها معركة الجماجم. كانت معركة حياة أو موت بالنسبة للطرفين. .

وانجلت في النهاية عن هزيمة ابن الأشعث. وتمزقت جموعه فلولا هاربة! ولم يجد الأمير الثائر من ملجأ سوى العدو الذي كان يحاربه. لم يجد سوى رتبيل. . فر إليه في كابول فتلقاه بالترحاب. إنه صيد ثمين! ولاحقه الحجاج لدى رتبيل وطلب إلى هذا الشاه في كتب متوالية تسليم من سماه «بالكذاب الشرود الغدار الفاجر المائق»

وهدده بالقتال إن لم يفعل وبوضع الإتاوة عنه سبع سنين إن هو فعل وبعدم حربه بعدها . .

ودار بالوساطة أحد التجار. وقبل الشاه رتبيل عرض الحجاج السخي مقابل تسليم رجل لا يربطه به رابط. وشهدت سطوح كابول الجبلية خروج ابن الأشعث في القيود والحراس ليسلم إلى الحجاج.

وعند بعض الوديان السحيقة انتهز ابن الأشعث غرة من حراسه فرمى بنفسه في الوادي السحيق.

هذا الأمير العاثر الحظ الذي وقع بين أسنة الصخور وأسنة الحجاج والذي كان أجد حسور الإسلام إلى أفغانستان، أليس بمظلوم؟ . .

كلمة أخيرة

وبعد. . .

فهؤلاء بعض من بعض المظلومين في التاريخ وأمثالهم عشرات الألوف بعد عشرات الألوف.

فالتاريخ محشر كبير للظالمين وللمظلومين على السواء. وفيه الملايين من هؤلاء وهؤلاء وشرط وجود الآخرين أن يوجد الأولون. فلا مظلوم بدون ظالم. وذلك الجائع الذي يبحث عن لقمة الخبز في القمامة يدين له بالدين الكبير ذلك الموسر الذي يتقيأ الغنى تقيؤا. وإذا كان من ظلام بعدد النجوم فثم مظلومون عدد الرمل والحصى والتراب وما يطفو على السطح إلا جزء من عشر معشار من لا تدري أنت ولا أدري أنا به. وإني لأرثي للأكباد التي احترقت دون أن تجد من يكفكف دمعها وأبكي لمن داسته عجلة التاريخ كيف يدافع عن نفسه. وإذا كان يأمل أن يأتي يوم يصل فيه إلى الانصاف فإني أخشى ألا يكون في «التقويم» مثل هذا اليوم، أخشى ألا يأتي. .

الا يأتي أبدا. .

الفهرسة



منشورات الدار العلمية

تأسست في دمشق عام ١٩٩٤ هدفها نشر العلم النافع للأجيال العربية

كتب منشورة:

١ً- برمجة الكمبيوتر لمعالجة البيانات	د. محمد فريز منفيخي
٢ً- الحسابات القومية	د. محمد فريز منفيخي
٣ً- اليتامى القادة في التاريخ	د. شاكر مصطفى
٤ً- المظلومون في التاريخ	د. شاكر مصطفى

كتب ستصدر قريباً:

٥ً- منهج البحث العلمي	د. محمد فريز منفيخي
٦ً- ثلاثون حديثاً تنظم الحياة الاجتماعية للمسلمين	د. محمد فريز منفيخي

كتب قيد الإعداد:

٧ً- الإقتصاد الإسلامي	د. محمد فريز منفيخي
٨ً- علم الإحصاء التطبيقي	د. محمد فريز منفيخي